ما تَراه عيني لا تَراه عينُك

الكتاب: **ما تَراه عيني لا تَراه عينُك**

المؤلف: **حليمة عبدالله الكعبي**

التصنيف: **قصص**

الناشر: **دار ملهمون للنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى: **يناير** 2021

التصنيف العمري: E

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978-9948-35-899-2

الطباعة : Masar printing & publishing, Dubai

اذن الطباعة: MC - 10- 01 - 2506844

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

جميع حقوق الطبع و إعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لملهمون للنشر والتوزيع، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من ملهمون للنشر والتوزيع.

darmolhimon

www.darmolhimon.com

0097143460891

Darmolhimon | UAE, Dubai,
Silicon Oasis | Park Avenue
Building, Office 405

حليمة عبدالله الكعبي

ما تَراه عيني
لا تَراه عينُك

إهـــداء

إلى أمي الغالية،

حب حياتي، وصديقتي، وروحي.

ثم إلى كل من تركوا فيّ أثراً طيباً

إلى كل من كان له فضل في اختيار كلماتي

إلى كل من بادلني ابتسامة محبة، وقلباً صادقاً

إلى كل الأشخاص العابرين الذين ألهموني بعض حكاياتي

إلى كل من أحبه بعمق..

أهديك هذا الكتاب.

بائع الوسادات

رجل ثلاثيني بملامح الأربعينيات.. ذو شعر مسترسل يصل إلى الكتفين، وذقن شوكي، وأنف حاد، وعينين غائرتين في حزن عميق، يقف خلف نافذة محلّه ويداه مغروستان في جيب معطفه الثقيل. فقَدَ أسرته على أثر مرض خبيث اجتاح المدينة وبَقِيَ وحيدًا في محل المفروشات والوسائد الذي اشتراه أيام ثروته. كانت تساعده فتاة شقراء صغيرة لا يعلم عن خلفيتها شيئًا إلا أنها تزوره كل صباح لتعمل معه في إدارة محله، وكان يحب وجودها حوله، فقد كانت تُحضِر له فطائر ساخنة من المخبز المجاور، وتساعده في تنظيف وتكنيس المحل. وفي المساء، كانت تؤنسه بأخبار لطيفة، وقصص خرافية لا يعلم إنْ كانت حقيقة، أم من نسج خيالها، لكنه كان يستمتع بالإنصات لكلامها البريء، وعينيها اللتين تعكسان فضاءً واسعًا.

في أحد الأيام الشتوية، وقف الرجل كعادته أمام نافذة المحل ينظر للغادين، والرائحين في الشوارع، ويرقب تساقط الثلج ببطءٍ شديد على حواف النوافذ وتراكمها فوق بعضها كسلسلة جبال في عالمٍ الأقزام. طأطأ رأسه، فإذا بقطة صغيرة مكوّرة قابعة بالقرب من عمود الإنارة قد أغلقت نصف عينيها، وترتجف عند كل حركة آدمي يهب من جانبها. خرج الرجل من فوره، وبدون تفكير التقطها بيده، ووضعها في جيب معطفه الدافئ. لم تعترض القطة. أخرج إحدى الوسادات ووضع القطة عليها، ثم أخذ يمسح على رأسها، وظهرها بحنان. نظر باتجاه النافذة منتظرًا قدوم الفتاة الصغيرة ليفاجئها بهذا الرفيق اللطيف.

لكن الفتاة لم تأتِ ذلك اليوم، فعكف الرجل على الاعتناء بالقطة، وإطعامها وتدفئتها. بمرور الأيام شعر الرجل بالوحشة من غياب الفتاة، وأصبح محله خاويًا لا يكاد يدخله أحد إلا من زبون واحد، أو اثنين في الشهر. شعر بالقلق إزاء مصيره المادي، وقلق أكثر تجاه غياب الفتاة لأكثر من أسبوعين. ذات نهار، قرّر الرجل أن يسأل صاحب المخبز المجاور عنها، فأجابه بأنه لا يعرف عن من يتحدث. استاء الرجل، وعاد إلى محله حزينًا، فاستقبلته القطة بفرح، وأخذت تتمسَّح وتتجول حول قدميه، وتموء بصوت رقيق.

في اليوم التالي، رنّت أجراس المحل معلنة عن قدوم زبون. كانت امرأة شابة ترتدي الفراء على كتفيها، وتبحث عن وسادة مريحة. ساعدها الرجل في اختيار وسادة كبيرة بيضاء مليئة بالريش حتى أعجبت بها، واشترتها. قال لها الرجل وهي تغادر المحل:

- أتمنى لكِ أحلامًا سعيدة سيدتي..

ابتسمت المرأة، وشكرته. نظر الرجل إلى القطة، وقال:

- هذه أول وسادة تباع منذ سنة!

ماءت القطة بغِبْطة.

بعد أيام، جاءت المرأة نفسها تعلوها تقاسيم فرح وحماس. استقبلها الرجل بكل ترحيب:

- مرحبًا بكِ سيدتي.. أرى أنكِ جئت من جديد. هل أعجبتكِ الوسادة؟

- إنها رائعة! منذ تلك الليلة استطعت أن أنام جيّدًا. كانت تراودني كوابيس مرعبة قبل أن أشتريها، فقررت تغيير الوسادة. وبعد

تلك الليلة أحلامي كلها أصبحت جميلة.. وفي كلِّ ليلة كنتُ أنام فيها على تلك الوسادة أرى أنّ أحلامي تحققت، فأستيقظ وأنا مسرورة.

استغرب الرجل من كلامها.. ولكنه هزَّ رأسه موافقًا دون أن يعلِّق بكلمة، ثم سألها:

- وهل جئتِ لشراء وسادة أخرى من تلك الوسادة العجيبة؟

- نعم، سآخذ اثنتين هذه المرة..

خرجت المرأة من المحل، وهي تحمل بيديها الوسادتين. دُهِشَ الرجل، ونظر إلى قطته التي كانت تلعق جسمها باسترخاء.

- هذا غريب! لا بُدّ أن المرأة تعاني من ظروف صعبة جعلتها تتوهَّم.

قرر الرجل إخراج جميع الوسائد من المخزن، وتنظيفها، وجعلها في مقدمة المبيعات، وكتب على كل وسادة "وسائد الأحلام السعيدة". بعد أسابيع قليلة، انتشر خبر بائع الوسادات، وانهال سكان المدينة يشترون تلك الوسائد. درّت الأموال في خزينة الرجل، وسَعِدَ بهذا القدر الجميل وتمنّى لو أنَّ الفتاة الصغيرة معه ليشاركها الفرحة ويحضر لها الكعك الذي تحبه.

وذات صباح، دخلت المحل فتاة حديثة العمر، واقتربت من الرجل قائلة:

- إن الوسائد التي تبيعها حقًا عجيبة! لقد كنتُ أفكر قبل أن أنام بحذائي الذي أضعته منذ أيام، وأحزنني أنني لا أستطيع ارتداءه في حفل زواج صديقتي، ولكنني عندما نمت حلمت في تلك الليلة أنني أتجوّل بين لُعَب أختي الصغيرة، فوجدته بينها، فكدت أطير

من الفرح. وعندما استيقظتُ أسرعت إلى غرفة أختي، وأخذت أبعثر ألعابها حتى وجدت حذائي الضائع. لقد وجدته حقًا! وأنا هنا لأشكرك على ذلك.

تلعثم الرجل باندهاش، ثم أجابها:

- يسرُّني سماع ذلك، وأتمنى لكِ يومًا طيبًا.

شعر الرجل بوجود أمر غامض بشأن هذه الوسادات، وقرر أن ينام بنفسه على إحداها. عندما أقفل المحل في تلك الليلة، وأخذ معه القطة إلى غرفته التي تقع في الطابق العلوي للمحل، أزاح وسادته القديمة، وضرب السرير عدة ضربات، وهيّأ الغرفة، وفتح النافذة الصغيرة، فهبّت نسائم باردة أنعشت الجوّ الكئيب. وضع القطة الصغيرة على سريره بجانبه، والتحف بغطائه الثقيل، ثم بَقِيَ محدقًا في السقف ينتظر أن يهبط النوم على جفنيه. كان الجوُّ هادئًا جدًّا إلى درجة أنه كان بإمكانه أن يشعر بنَفَس القطة إلى جانبه، وإلى صوت الستارة وهي ترفرف بين ضربات الهواء البارد، ووقع أقدام الناس على الثلج، ثم فكّر: "بماذا أريد أن أحلم؟" فكّر بزوجته وطفليه الجميلين، وتمنى أن يراهما في المنام.. ولكن عيناه أبتا أن تطبقا تلك الليلة. بات يتقلب في فراشه كثيرًا، ويتصبَّب عرقًا وسط الجوّ البارد، وكانت في كل مرة يتقلب فيها تقوم قطته، وتلعق وجهه حتى يسكن، ويمسح على رأسها، ويهمس في أذنها: "لا يمكنني أن أنام.. أنا آسف".

عندما بدأت ألوان الفجر الأولى ترتسم على ملامح النافذة المفتوحة، وتنطفئ إنارات الشارع واحدًا تلو الآخر، لم يُطِق الرجل

المكوث في السرير، فقام كمن يمشي في منامه، واصطدم بعدّة أشياء قبل أن يصل إلى الماء ليغسل وجهه. كان وجهه شاحبًا عندما نظر إلى المرآة، حيث نبت شعر وجهه كثيرًا، فبدا شكله كرجال الشوارع والأزِقّة الخطرة. أخذ يمرِّر كفَّه على خدّيه، وعينيه، وتحسّس شعره الذي استلقى على كتفيه، فقرر أن يستحمّ، ويحلق شعر وجهه، ويقصّر شعر رأسه.

ضربت أشعة الشمس الباردة أرضية غرفته، وذهب الرجل ليعدَّ لنفسه كوبًا من الشوكولاتة الساخنة، وعندما لاحظ النهار يفتتح هذا اليوم جرى مسرعًا على السلالم إلى الأسفل وتناول لافتة "مغلق" من أحد الأرفف، وعلّقها بسرعة على باب المحل من الخارج، وأقفل الباب بإحكام، ثم أغلق الستائر البيضاء من جميع النوافذ. جلس خلف طاولة الحساب، ودفن وجهه بين كفيه. لم يكن يعرف هو نفسه لماذا تصرَّف بهذه الطريقة، كلُّ ما كان يشعر به هو الضيق يهبط من الأعلى ويستولي على صدره فيخنقه؛ لذلك لم يكن مستعدًّا لاستقبال أيّ زبون. وبعد تنهُّدات متتابعة، تذكّر قطته التي تركها في الأعلى؛ فذهب ليعدّ لها حليبًا لتشاركه الإفطار. لم تكن القطة في الغرفة ولا في الفراش! بحث عنها في كلِّ متر من الشقة، ثم نزل إلى محله من جديد باحثًا عنها.. أخذ يحبو على أطرافه الأربعة، وينظر أسفل الأسطح، ثم يتسلق السّلم المتنقل، ويمرّر بصره في كل زاوية. لم يبقَ شبر إلا وبحث فيه ما عدا المخزن المقفل. كان يعلم يقينًا أنها لن تكون هناك، ولكنه بحث عن المفتاح بين عشرات المفاتيح، وفكّ قفل المخزن حيث يجمع فيه الوسادات، والأثاث الذي كساه الغبار. بدأ

يقلّد صوت القطة بصوت عالٍ، وهو ينبش بين الوسادات، ويرمي بها في كلّ مكان حتى عمّت الفوضى. عندما كدّه التعب، وآلمته حنجرته من المواء أخذ يتلفت حوله، كانت الوسادات تنتشر في كل مكان، وقد نصبت تلالًا في زوايا متفرقة من المحل. تراجع الرجل بضع خطوات للخلف، وتعثر بأحد التلال، وسقط عليها، ولم ينهض.

"السماء قرمزية داكنة، والسحب عبارة عن ثلوج متجمعة في الأعلى، وتسقط على شكل وسادات ناعمة.. من بين تلك الوسادات المتجمّعة على الأرض، كانت الفتاة الصغيرة التي أحبّها الرجل نائمة، وهي مبتسمة، عندما رآها رفرف قلبه وأسرع إليها، كانت ترتدي فستانًا أبيض طويلًا، وحاجباها يرسمان قوسين فوق عينيها الواسعتين. اقترب الرجل، ومسح على رأسها، وهمس في أذنها: "لقد اشتقتُ إليكِ. لماذا غبتِ عني طويلًا؟" فتحت الفتاة عينيها وكأنها لم تكن نائمة، وجلست بهدوء، وتناولت يد الرجل، وقبّلته، ثم وقفت فوقف معها وأخذا يمشيان في الفراغ. كانت السماء تتغير ألوانها بين الفينة والأخرى، لقد أصبحت الآن صفراء بلون طيف الجوِّ الغابر. توقف الرجل وسألها:

- أين نحن؟

نظرت إليه الفتاة، وقد تحوَّلت ملامحها إلى ملامح فتاة شابة فاتنة تشبه زوجته كثيرًا، قالت له بنبرة حنان لها صدى موسيقي:

- أنا سعيدة من أجل قَدَرك الجميل مع الوسادات العجيبة! ولكنك لا تعيش حياتك كما ينبغي، لقد بدأتَ تتخيل كثيرًا يا عزيزي، وهذا يحزنني! لا وجود للفتاة التي تنتظرها، إنها من صنع خيالك..

أرجوك توقف عن النبش في ذكريات الماضي. كن قويًا، واقلب تلك الصفحة البائسة. لا أحب أن أراك تتألم وتعيش في الأوهام.

انفجر الرجل بالبكاء كالطفل الصغير. وقال بصوت يخالطه البكاء:

- خذيني معكِ.. لا أستطيع العيش لوحدي. لقد تعبت من الحياة!

مسحتْ على رأسه:

- لا.. لا يمكنني أن آخذك معي. عُدْ إلى محلك، وابدأ حياتك من جديد، واعتنِ برفيقتك الجديدة من أجلي.

تلاشت الفتاة مع الريح، وبدأت السماء تتحوَّل للبياض."

استفاق الرجل، ووجهُهُ مبلَّل بالدموع، ووجد القطة نائمة إلى جانبه فوق الوسادات المتراكمة. ابتسم عندما رآها، ومسّد رأسها وظهرها بحنان، وهمس في أذنها: "إذن أنتِ حقيقية! انتظريني هنا، سأعدُّ لكِ حليبًا ساخنًا".

ما تَراه عيني لا تَراه عينُك

صوت رنين الملعقة المعدنية بالكأس الزجاجي، وهي تدور بجنون داخل دوَّامة شاي الأعشاب.. ورائحة الكعك والبسكويت الناضج من الفرن تلفّ مقهى الفوكيت في شارع الشانزليزيه في باريس الجميلة. جلس "لو" على إحدى الطاولات الخارجية متلحفًا بوشاح ثقيل حول عنقه، وقد أخفى شفته، ونصف أنفه داخله. كان ينظر إلى ساعته بين الحين والآخر، ويتلفت خلفه كثيرًا ويتصفح وجوه المارِّين بجانب المقهى.

جاءه النادل بوجه محتار مع قائمة الطعام. فأشار إليه "لو" بأن يعود بعد قليل. تغيَّر وجه النادل، وقال بغضب:

- منذ ساعة وأنت جالس هنا، ولم تطلب أيَّ شيء.. هل تريد أن تطلب؟ أم تكتفي بهذا الشاي؟

رفع "لو" رأسه، وأزاح وشاحه من فمه، وقال بكل برود:

- ولِمَ أنت غاضب؟

عدّل النادل نظرته الحادّة وفَرَد ظهره، وبنبرة أقل شدة:

- لأنك طلبت مني أن أمرَّ عليك لأكثر من ثلاث مرات.. هل سيأتي صاحبك، أم لا؟

- بل سيأتي.. أنا واثق

- يا له من مجنون صاحبك هذا!

- إنه ليس مجنونًا.

فتأبَّطَ النادل قائمة الطعام، وانصرف متذمرًا. بعد عشر دقائق من انصراف النادل، أقبل رجل متوسط الطول يرتدي السواد، وقبعة صوفية خضراء داكنة تغطي شعره، وله عينان صغيرتان تلتمع سوادًا يُصعب رؤية بياض عينيه، وله شفتان عريضتان تميلان إلى جانب وجهه الأيسر، وقد اختلط شيء من اللون الرمادي مع لون لحيته وشنبه الأسودين. كان يمشي وهو يحرِّك رأسه للأمام مع كل خطوة يخطوها كما تفعل الطيور. أخذ "لو" يحدَّق فيه، وهو يضحك في داخله. وعندما اقترب الرجل، لوّحَ له بكل وُد وقام إليه واحتضنه. قال الرجل بعد أن ألقى تحية الصباح:

- لا أدري لم تُصِر على دعوتي لهذا المقهى، ولا تغيره أبدًا مع أن طعامه ليس بهذه الروعة!

ضحك "لو" وأشار بيده ليجلس:

- إنه الأفضل في هذا المكان، وهو يليق بنا.

- يليق بنا؟ لستُ أملك هذا المال لأشرب قهوة فاخرة كل صباح. أنتم الأغنياء مدللون جدًا.

أشار "لو" بيده بعد أن التقت عيناه بعينيّ النادل، فجاءه مسرعًا بالقائمة. طلبا قهوة ساخنة ممزوجة بالحليب، أما الرجل الآخر وكان اسمه "ديلمون"، فقد أضاف ثلاث قطع من حلوى الماكرون الملوّنة لطلبه. وبعد أن انصرف النادل مباشرةً، استهلّ ديلمون الحديث:

- في طريقي إليك، رأيت متسوّلًا جالسًا على الأرض، ويبدو على وجهه الإنهاك، والبؤس.. لا أدري لماذا؟ ولكنني لم أشعر

بالشفقة عليه البتَّة. كنتُ أود أن أضربه على وجهه الشاب، ولكنني اكتفيتُ برفسه على قدمه المُمَدّدة وصرختُ فيه "قم وابحث لك عن عمل!" فقام الشاب وجذبني من ياقتي، وبصق على وجهي. فرددتُّ له البصقة، وأخذنا نتبادل اللكمات حتى اجتمع الناس حولنا، ويبدو أنني أصبحتُ حديث الصباح. آه يا له من خبيث! لو كانت نفسه أطيب من ذلك لرحمته قليلًا.

كان " لو" ينظر إليه وهو مبتسم، ومستمتع بالاستماع إليه، وخصوصًا أنه عرف سبب تأخُّره عن موعده. ثم أكمل "ديلمون":

– هل تعرف بماذا يلقِّبني الناس في هذا الحيّ؟

– ...

– بالغراب التائه.. وسمعتُ مرة أحدهم ينادني بميكافيلي.. ذلك الإيطالي الشيطان!

– وهناك لقبٌ آخر.. المجنون!

– آه.. شكرًا لك.

انفجر "لو" ضاحكًا، وبقيَ جسمهُ يهتزّ وهو يكتم ضحكته التي لفتت جميع الأنظار إليهما، بينما رسم ديلمون ابتسامة معوَجّة على وجهه، وهو ينظر إلى السماء الرمادية. هنا جاء النادل بالقهوة والماكرون، وتمنى لهما فطورًا لذيذًا.

نسيم الصباح البارد يمرُّ كالأطياف الخَفيّة بين الكراسي المستقرة خارج المقهى، وينسابُ بكل خفة داخلًا من الباب المفتوح، ويحرّك ستائر الدانتيل المعلّقة حول النوافذ القصيرة. والأجمل من ذلك، كان يحتضن دخان القهوة الساخنة ويتراقص معها في الجو مبتعدًا.

أنهى ديلمون تصفُّح رسائل هاتفه، ثم وضعه جانبًا، وعاد بظهره للخلف. التفت إلى "لو" ونظر إليه بتركيز، حيث أصبحت عيناه أصغر مما هما عليه:

- "لو".. لقد أصبحنا صديقين منذ ثماني سنوات على ما أظن.. ولكنني لم أعرف قطّ ما هي أمنيتك في الحياة؟

لم يُدهش "لو" كثيرًا من السؤال المفاجئ؛ لأن "ديلمون" كان يصدمه في كل مرة، وفي كل لحظة وفي كل ثانية، وهو يحب ذلك. أجاب من دون تفكير طويل:

- أن تبقى صاحبي حتى الممات..

كانت إجابة "لو" صادمة أكثر من سؤال "ديلمون"، فسكت الاثنان قليلًا، ثم ضحك ديلمون مستهزئًا:

- إذًا أنت تُضيّع حياتك.

- لا يهم..

- أتدري؟... صاحبك هذا لديه أمنية مختلفة تمامًا.

ثم سرح بخياله بعيدًا كما يفعل عادةَ قبل أن يجيب عن سؤال صعب. كان "لو" يترقب إجابته وعقله خالٍ من أي توقّع؛ لأنه يدرك أنه سيأتي على غرار ما يفكر به. قرّب "ديلمونٌ" رأسه من الطاولة مصوّبًا تركيزه نحو كوب القهوة، ثم سحب رأس صاحبه، وجعل أذنه ملاصقًا لأذنه كأنهما يراقبان نملة تمشي على الطاولة. ثم أشار بأصبعه:

- هل ترى الدخان المتصاعد من الكوب؟

- نعم.. نعم بالكاد أراه.

- أتمنى أن أصبح هذا الدخان!

ثم فكّ قبضته من رقبة "لو"، وعادا إلى وضعيتهما.

- تريد أن تصبح دخانًا؟ ولماذا؟

- انظر إليه بتمعُّن. انظر كم هو شفاف! إنه قوي وضعيف في نفس الوقت. يمكن لأية نسمة هواء أن تحركه، ولكنه سرعان ما يرتفع مبتعدًا عن كل شيء.. ثم يختفي حتى لا يراه أحد.. إنه موجود في مكان ما حولنا، ولكننا لا نراه.. لا بُدّ أنه يضحك علينا الآن.

شفافيته تغيظني.. تجعلني أشعر بالغيرة.. إنه لا يبالي بتاتًا أن يراه الجميع بطبيعته من الخارج والداخل، ويمكنه الترحال أينما شاء من دون أن يراه أحد. أليس جديرًا بلفت الأنظار؟!

تخيّل "لو" صاحبه "ديلمون" وهو شفّاف، ويطير كشبح بين ناطحات السحاب. ولونه الدخاني يتلاشى شيئًا فشيئًا، فلم تعجبه الصورة.. امتعض وجهه، فتظاهر بشرب قهوته. أكمل "ديلمون":

- أتدري لِمَ وافقتُ على ملاقاتك هذا الصباح؟ أردت أن أخبرك بأنني سأُسافر قريبًا.. سأغادر باريس!

عدّل "لو" من جلسته، وأخفى صدمة كبيرة حطّت على مسمعه:

- حقًا؟ وإلى أين؟

- لن أخبرك الآن.. فلَدَيّ أسرار لا أحب مشاركتها مع أي أحد. ولكنني وددت أن أودِّعك قبل أن أغادر.

- أنت تبالغ بمزاحك. لمَ تريد الرحيل؟! أنا لا أصدّقك!

طوى "لو" الجريدة التي كان يقرؤها، وحشرها في جيب معطفه وقام واقفًا، أخرجَ محفظته، وتوجه لداخل المقهى. تَبِعه

"ديلمون" بنظرات استغراب، ثم قام واقفًا هو الآخر، وأخذ ما تبقَّى من ماكرون ووضعها في جيبه، وبشربة واحدة أنهى قهوته التي بردت ببرودة الطقس الغائم.

كان الانزعاج باديًا على وجه "لو"، فلم يُجِبْ على أيٍّ من أسئلة ديلمون الذي وقف خلفه عند طاولة الحساب. التفت "لو" إلى النادل الذي قدّم لهما الطعام، وقال بوجه عابس:

- أما ما قلته عن هذا الرجل، فأنت على حق!

غادر "لو" بخطواتٍ واسعة متسارعة يريد الفرار ممّا سمعه من صديقه.. صديقه الوحيد الذي يشعر معه بالسلام والانتماء. مدة ثماني سنوات ليست طويلة كفاية لترسيخ جذور الصداقة في أعماق شرايين الفؤاد، ولكن هذا لا يهمّ، فهناك أشخاصٌ تشعر من الوهلة الأولى أنك تنتمي لهم.. أنك تعرفهم منذ زمن طويل ربما قبل ولادتك. تَبِعَه "ديلمون" باستبطاء وهو ينادي عليه، ثم توقّف في منتصف الطريق لا يريد حقًا اللحاق به حتى لا يضطر لتفسير قراره المفاجئ. فكّر في نفسه "سأرسل له رسالة ورقية عندما يحين الوقت، وأجد العذر المناسب".

هكذا افترق الصديقان "لو" و"ديلمون" بعد صحبة معتّقة بالصراحة والنقاشات العميقة، ولقاءات في أماكن غريبة كالكهوف الخاوية، ودكاكين الشوارع التي يقترحها "ديلمون" ومتحف اللوفر، ومطاعم في فنادق فخمة كما كان يرتّب لها "لو". لا يهمّ من أي بلاد نشأ بطلانا، ولكن ما يهم هو أنهما يرتحلان في الأرض الممتدّة.

بعد مرور سبعة أشهر، تلقّى "لو" تلك الرسالة المنتظرة.

كان يعلم أن هناك ما سيقوده إلى حيث يختفي صديقه الغادر، وبقي يعدّ الأيام والليالي بتقطيع أوراق التقويم، والخربشة عليها بتعليقات مؤلمة وبائسة. أوصل له الرسالة ساعي البريد، فجاءت في نهار معتدل البرودة، تتقافز فيه العصافير بين شجيرات حديقته المهملة بعد حادثة الفراق، وتتقرمش الأوراق كلما خطا خطوة نحو باب الحديقة.

محتوى الرسالة، جعل "لو" يمزقها من دون تردد.

صديقي "لو"..

"ما تراه عيني لا تراه عينك. دعنا نلتقِ حيث تتضارب الشهب، وتتراقص الألوان في السماء. سأكون بانتظارك. لا تتأخر"

أخذ "لو" يسبّ، ويشتم، ويزمجر:

-كان بإمكانك كتابة عنوانك على الأقلّ!.. أو تردّ على مكالماتي أيها الوغد! ولكنك تفعلها من جديد. تريد استفزازي! تريد أن تعذِّبَني.. تعلم أني لن أرفضَ لك طلبًا.

استعد "لو" للسفر لبلاد الشمال، ولم يكن متأكّدًا تمامًا من وجهته؛ لذلك أخذ يبحث في الإنترنت عن كل الدول التي تتراقص فيها الألوان في السماء. خلال لقاءاته الطويلة مع صديقه عرف عن ظاهرة الشفق القطبي، إلا أنه لم يفكر يومًا بالمخاطرة والسفر إلى تلك المناطق القاسية. رسم أسهمًا وخطوطًا، وإشارات على خريطة ألصقها على جدران غرفته المظلمة إلّا من أشرطة شمسية قادمة من النافذة. وضع خطة دقيقة لمحطات رحلاته، وأيام نزوله، وإقلاعه. خوفه من عدم ملاقاة صديقه كان أشدَّ من الانطلاق نحو المجهول.

حلَّقت الطائرة بمحاذاة النجوم، كان العالم في الأسفل يبدو مسالمًا وخاليًا من المصائب، والمشاعر الجافّة التي يتلقّاها المرء من الهجران. تنهّد مستسلمًا لكلمات الرسالة الجارحة، ثم أخرج مذكّرَته، وسجّل تاريخ أول يوم يقلع فيه بحثًا عن صديقه. كانت وِجْهته الأولى إلى فنلندا، حيث مكث فيها شهرين، ولم يُطِق الوِحْدة، وتجهّم الناس من الشتاء الأبدي، ثم انطلق إلى السويد، وهناك قرّر أن يبحث عن عمل ليشغل بقية ساعاته، وعقله التائه. عمل بائعًا في سوق السمك لمدة ثلاثة شهور، لكنه لم يتحمل الرائحة العالقة في أنفه بعد أن اعتاد على رائحة الأثاث النفيس، وأجود أنواع العطور، فقرر أن يعمل نادلًا في فندق يتذرّع به لتصفح وجوه مرتاديه لعله يعثر على وجه يعرفه. ولكن البحث استمر طويلًا، ووبّخه مديره لسرحانه المتواصل وباله المشتّت. وأخيرًا قرّر أن يترك هذه الوظيفة أيضًا.

اعتكف في شقته العالية لمدة أسبوعين قبل أن يشدَّ رحاله لرحلته القادمة. خلال وحدته المريرة، كتب عدّة رسائل بلا وجهة، وخطّ مدوّنات في مذكرته تدور حول المواقف التي تعرّض لها خلال عزلته الشاقّة. كان على وشك أن يعود إلى باريس، ولكن الأمل أخذ بتلابيبه، وأخبره بأن النرويج قريبة منه وهي مجرد خطوات. وهكذا كان.

في مساء اليوم التالي، استقلّ سيارة أجرة، وانطلقا إلى الفنادق الشتوية الزجاجية. نبهه السائق إلى أن هذه الفنادق قد لا تكون جاهزة في هذا الوقت من العام، وأن أمواله قد تتبدّد مقابل الخيبة، لكن "لو" أصرّ على الذهاب نحو المجهول، حيث تتوزع أشجار

التنوب بقبعاتها الثلجية. وعندما داهمتهما كتل الثلج، توقف سائق الأجرة، وحرّضه على الرجوع في يوم آخر. أخرج "لو" النقود من محفظته، وناولها السائق، وأمره بالرجوع، وألّا ينتظره. نزل بحقيبة ظهره، وأخذ يصارع الثلج بقدميه. راقبه السائق وهو يبتعد، ثم قفل راجعًا.

هناك، استقبلته أشجار التنوب الحنون بانحناءات متواضعة ومشفقة.. هناك صمت الجبال يواسي خطواته المرتبكة والمتردّدة. وهناك، فوق رأسه تتراقص ألوان خضراء فسفورية لامعة تبتسم خلفها النجوم. توارى له من البعيد لهيب دخان متصاعد من شعلة فوق حطب.. وأمام الشعلة يسكن شبح رجل جالس، ومتقوقع حول النار. تسارعت ضربات قلب "لو" وكذلك خطواته، وتعثر كثيرًا حتى كاد أن يمشي على أربع.. فانتبه الرجل الجالس، ونظر لخلفه، وأخذ يراقب ويدعك عينيه من جفاف البرد. أصبحا يقفان قبالة بعضهما، كاد الآخر أن يَخِرّ على ركبتيه.. لكن "لو" ابتدره بضربة قوية على صدره. ضحك الآخر، وشهق ثم صاح متعجّبًا، وساخرًا في نفس الوقت:

- إنه أنت! إنه حقًا أنت! لماذا تأخرت؟ انظر إلى وجهك.. كأنك كبرت مئة عام!

تنهد "لو" باستسلام وراحة، ودفع "ديلمون" جانبًا، وجلس على الأرض، وقال وهو ينتفض:

- دعني أتدفأ.. أكاد أتجمّد هنا!

قرية الأضواء

وقف الصّبي كعادتهِ على أطراف أصابعه حتى غاصت في الرمل. كانت عيناه العسليتان تترصّدان من خلال نافذة الكوخ الخشبي القديم، فتتَّسع حدقتاه ثم تضيقان في محاولات لاختراق طبقة الغبار التي كست الزجاج بلون رمادي. آلمه أنفه المضغوط على الجدار، فأرخى قدميه في الرمل مستسلمًا لقصر قامته، وولى ظهره للكوخ من دون أن يطرق الباب، أو يصرخ مناديًا صاحبه الغائب. أصبح البحر نائمًا أمامه، والسماء مكتظة بالغيوم حتى بدا الصباح مساءً. نظر الصبي إلى السماء وتمتم:

- ستمطر اليوم أيضًا، ولم يغادر العجوز كوخه لليوم الرابع..

اتجه نحو قاربه الخشبي الملون بالأصفر والأزرق، وأحكم رباط القارب حول عمود استقرّ في قلب الأرض، وزفر متنهدًا:

- لن نبحر اليوم أيضًا.

سار إلى منزله الذي يقع خلف الكوخ بثلاثة منازل لعِبَ الزمان في ملامحها فأصبحت كالأكواخ المهجورة في اللوحات الفنية. أصدر الباب صريرًا عاليًا عندما فتحه فتحلقت حوله رائحة السمك المجفف والأعشاب الطبية المحشوة داخل الجرار. مشى بضع خطوات نشيطة نحو أرفف جدارية، ثم أمسك بقارورة اصطفت مع عشرات القوارير الزجاجية بمختلف الأحجام والأشكال.. كانت محشورة بالفراشات المضيئة. همس وهو يحدق فيها عن قرب:

- اليوم سأمضي بِكُم إلى منزل العجوز..

ثم أعاد القارورة إلى الرف، ورمى بجسده على الشرشف المربوط بين جذعي شجرة جوز الهند مقطوعتي الرأس. تأرجح به الشرشف يمنةً ويسرةً وهو يدندن أنغام السعادة.

قاطع أحلامه صوت الرعد في الخارج، فتبِعه صبيب المطر على أسقف المنازل والشوارع الترابية، وخُطى متسارعة لرجال وأطفال. تحرك الصبي بسرعة وأخرج أواني طبخ معدنية، ووزعها في زوايا مدروسة من المنزل. حكّ رأسه بانزعاج:

- آه .. ليتني أصلحت الفجوات بدلًا من الاستلقاء!

تناول القارورة المعبّأة بالفراشات، وأخذ لحافًا ثقيلًا كان مَرْمِيًا على الأرض، ولفّه حول رأسه وكتفيه، وأطلق قدميه العاريتين لكوخ العجوز. طرق الباب بشِدة:

- افتح الباب.. هذا أنا!

كانت قدماه ملطّختَيْن بالطين، والقارورة منتصبة في جيب بنطاله. بعد دقائق سمع الصبي صوت انكسار زجاج من الكوخ، ثم خطوات ثقيلة تقترب من الباب. فتح العجوز الباب بكل هدوء. كان وجهه أحمر، ولحيته البيضاء تغطي نصف وجهه وظهره يميل للأمام قليلًا. نظر إلى الصبي المبلّل، وقال بصوتٍ يشبه الجبل:

- ابقَ مكانك.. سأُحضر ماءً لتغسل قدميك.

- أكاد أغرق هنا!

وضع العجوز دلوًا مملوءًا بالماء الدافئ عند قدميّ الصبي. وبسرعة أخرج الصبي قدميه المبللتين، ومشى نحو كنبة عملاقة عتيقة تقبع أمام مدفئة مشتعلة، صاح الفتى بنبرة عتاب:

– لقد جعلتني أقلق عليك! لم تزرني منذ ثلاثة أيام، فخشيت أنك غيّرت رأيك بشأن اتفاقنا..

– أيُّ اتفاق؟

كان الرجل يترنّح في أنحاء الكوخ ببطءٍ وتوتر مكبوت، ثم اتجه نحو إحدى زواياه وأغلق بابًا جانبيًا. تناول كوبين من الفخار، وصب فيهما شاي أعشاب، وناوله للصبي بينما أبقى كوبه على الطاولة، وجرّ كرسيًا خشبيًا نحوه. جلس بهدوء مسندًا ظهره للخلف، مفسحًا عن بطنٍ كبير خلف ملابسه الغليظة. كان الصبي يراقب كل خطوة يقوم بها العجوز، ويجول بنظره في كلّ مكان كمن يبحث عن شيءٍ، ثم صاح:

– هل نسيت؟ قررنا أن نبحر اليوم للبحث عن النجوم!

قهقه العجوز بصوتٍ عالٍ، ثم شرب الشاي دفعة واحدة. لم يعلّق الصبي على ردة فعل العجوز، بل قام من مكانه، وناوله القارورة المملوءة بالفراشات:

– خذ.. هدية أخرى.

تفحّص العجوز القارورة بعينيه الرماديّتين ورجّها أمام وجهه:

– هل ما زالوا أحياء؟

– بالطبع..

– هممممم... شكرًا لك يا صديقي.

عاد الصبي إلى الكنبة، ثم كوّرَ نفسه:

- لماذا ضحكت؟ القرية مظلمة منذ أسابيع.. أضواء الشموع لا تكفي..

- وهل ستذهب لإحضار النجوم من السماء؟

- لماذا تسخر مني؟

- انتظر قليلًا.. ستعود السماء كما كانت بعد أيام.. البحر هائج جدًا لا يمكننا الإبحار.

انزعج الصبي من كلام العجوز، ثم قام، وجلس قُبالة المدفأة:

- ماذا تُخبّئ في تلك الغرفة؟

- أها.. إذًا جئت من أجل هذا.. لم تكن قلقاً عليّ. أليس كذلك؟

ضحك العجوز مرة أخرى، وأخذ نفسًا عميقًا، وأغلق عينيه. كان الصبي ينتظر إجابة، لكن الآخر بقيَ صامتًا، ورأسه مصوّب نحو السقف. لم تتوقف السماء عن القصف والزمجرة حتى المساء، بينما قضى الاثنان يومهما في حياكة أشرعة القوارب وشِباك الصيد. كان أهل هذه القرية يعتمدون في غذائهم على السمك والفاكهة التي تثمرها أشجار الغابة، وعصير جوز الهند وهذا هو الطبيعي بالنسبة لقرية منعزلة وسط البحر. عدد سكان هذه القرية لا يتعدى الألف؛ لذلك فإن الجميع يعرف الجميع ولكبار السن السلطة والرأي. كان الصبي يتيمَ الأبوين منذ سِنّ الرابعة، وهو الآن في الثانية عشرة من عمره. تعرّفَ على العجوز في إحدى رحلات الصيد وسط البحر، حيث خرج العديد من أهل القرية، وخيموا في قواربهم لمدة ثلاثة أيام.

كان الصبي حينها في الثامنة من عمره. وفي إحدى ليالي التخييم، سرد العجوز حكايا ممتعة عن البحر، ورحلات الصيادين، وأشعار تتغنى بالنجوم اللاّمعة. هنا أُعجِب الصبي به، ورافقه في جميع رحلاته في البر والبحر.. في صيد الأسماك، وصيد الحشرات، وجمع الفواكه، وتسلق أشجار جوز الهند، وصنع السلال، وتلوين القوارب. أخبر العجوز ذات مرة مازحاً أنه يريد التقاط بعض النجوم وتعليقها في أرجاء القرية، وعلى الأشجار وعلى أسطح المنازل. وكان العجوز يبتسم في كل مرة يعيد الصبي هذه الأمنية.

بعد أربع ساعات متواصلة، هدأت السماء، وبقيت أصوات القطرات المتساقطة من حوافّ المنازل، وأصابع الأغصان على بِرَك مائية تضيف لحناً هادئًا يولّد ذكريات الشجن، والأحلام المنسية. سارع الصبي نحو النافذة، وفتحها بقوة، وأخذ نفسًا عميقًا حتى امتلأت رئتيه برائحة المطر، ثم هتف بحماس:

- يجب أن نبحر اليوم.. والآن، لا مزيد من الأعذار يا صاحبي..

حمحم الرجل العجوز:

- لا يبدو الجو مناسبًا إطلاقًا.. قد تمطر من جديد.. لا تتسرّع!

- أنا مُصِرّ..

- يا لك من ولد عنيد!.. هيا إذاً خذ الحبال، وقنّينة الماء.

طار الصبي من شدة الفرح، وبكل خِفّة لفّ حول ذراعه حبلًا طويلًا، وسبق العجوز جريًا نحو الساحل. كانت الأرض لزجة، والطين

يتراشق مع كل خطوة يخطوها الصبي حتى أصبح بنطاله ملطخًا بالطين إلى رُكبتيه. كان يغني طربًا وهو يفكّ رباط القارب الخشبي، وتأكد من سلامة حبال الشراع الذابل، ووضع الحبل الإضافي في قاعدة القارب. تمايل القارب بشدة عندما ركب العجوز، وساعده الصبي على الجلوس، قال الصبي مازحًا:

- لقد ازداد وزنك كثيرًا.. إذا استمررت بالزيادة لن نتمكن من ركوب القارب في المستقبل..

مسح الرجل على جبينه، وهو يلهث:

- معك حق.. عندها سنحتاج إلى سفينة..

ضحكا سويًا، واختلطت ضحكاتهما بصوت هدير الأمواج المتلاطمة، والنوارس. لم تكن السماء كمن هاجت قبل قليل، فقد بدت ساكنة تتوشّحها سحب طويلة متفرقة كأيدٍ كانت متشابكة، ثم تفرقت. لم يتحدث الاثنان لفترة من الزمن، وبقيا يتلفّتان في انسجام مع حركات الموج، وصوت حركة المجاديف في البحر. كانت الشهب تتساقط باستمرار وكلّما لاح لهما نجم ساقط ابتسما بصمت، وأخيرًا قال الفتى بصوتٍ هادئ:

- لقد سمعت صوت انكسار زجاج عندما أتيتك هذا المساء.. ماذا كان ذلك؟

نظر إليه العجوز بعينيه الدافئتين، وزمّ شفتيه:

- لقد تحطمت إحدى أوعيتي الزجاجية.

- أوه حقًا! هناك ما تخفيه عني بلا شك..

- ألم تقل إننا جئنا لصيد النجوم؟ إنها فرصتك.. ها هي

نجمة كبيرة إنها تتبعنا.. هل تراها؟

كان العجوز مصوّبًا إصبعه نحو نجم له بريق ساطع من بين النجوم التي تسللتْ من بين السحب. نظر الفتى للسماء طويلًا وأجاب:

- أحضرها..

فمدّ العجوز يده باتّجاه النجم، وحرّكها كمن يلتقط شيئًا، ثم أغلق قبضة يديه بإحكام:

- ها هي.. التقطتها!

قالها بكل سرور.. نظر الفتى إلى السماء حيث النجمة، ولكنها لم تكن هناك، فقد استقرت مكانها سحابة ممتدّة على مصراعيها.

- أرني..

- هل أنت مستعد؟

- نعم..

اقترب الصبي من العجوز، وركّز نظره على قبضته.. ففتحها ببطء وحرص. كان جسمًا مضيئًا مشعًا يتذبذب في راحة يده، وما إن انفكّت جميع أصابعه بدأ الجسم اللامع يرتفع نحو الأعلى. حدّقا بذلك الضوء الخافت، وكلما ارتفع ازداد وهجه. فتح الصبي فمه من الدهشة، ولكن لسانه انعقد عن الكلام. أضاء ذلك الجسم الصغير القارب.. عندما أصبح فوقهما بحيث لا يستطيعان التفريق بين النجوم الموجودة في السماء وبين ذلك الجسم الطائر، نظر الفتى بعينين مبللتين:

- كيف فعلت ذلك؟

الرجل بابتسامة حنونة:

- إنها البداية فقط. موعدنا غدًا في نفس الوقت، ولكنني أودّ منك أن تجلبَ لنا فاكهة طازجة من الغابة، وأن تكثر من الجوز.. فأنا أحبه، وسنقيم وليمة غدًا، وسندعو أصحابنا الصيادين.

بعد عودتهما، استلقى الصبي على سريره المتأرجح، كان قلبه يقفز حماسًا.. وأخذ يتمتم لنفسه بكلمات، ثم يضحك ويغني. تظاهر بأنه لم يعرف حيلة العجوز، وأن ذلك النجم الطائر ما هو إلا إحدى الحشرات المضيئة النادرة التي لم يتمكن هو من الإمساك بها، وكان يتنافس مع العجوز ليجاريه من سيمسك بتلك الحشرات النادرة أولًا. لكن ما كان يجعله متيقظًا طوال الليل هو التفكير في صوت الزجاج الذي سمعه، والأمر الذي يخفيه عنه صديقه العنيد. حاول ربط الأحداث، ولكن الدوامة في رأسه كانت تدور حول نفسها.. " لا بد أن الزجاج الذي انكسر كان معبّأ بتلك الحشرات النادرة!"

هبّ الصبي بكل نشاط عند صيحة أول طائر نورس قرب الشاطئ، ارتدى نعليه وثبّت سلة كبيرة من الخوص على ظهره، وانطلق جريًا نحو أشجار جوز الهند. في طريقه، حيَّا الصيادين ممن سبقوه إلى البحر، ورمي الشّباك، وأخبرهم أن يتواجدوا في هذا المكان عند المغيب.

تسلق الصبي عدة أشجار بخِفة وسرعة، وأخذ يقطع الثمرة بالمنجل، فتهوي كرات جوز الهند على الرمل، ثم يقفز للأسفل، ويجمعها في السلة. وعند ذروة الظهيرة، كان قد جمع سلتين إحداهما معبّأة بالفاكهة المتنوعة والأخرى بجوز الهند. راح عند صاحبه العجوز، وأخرجا طاولات خشبية، وصنعا بعض الكراسي من

جذوع الشجر، وقاما بتزيين الطاولات بأوراق شجرة الموز وباقات من الزهور، وجمعا الحطب ليشعلا نارًا ضخمة عندما تغرق الجزيرة في الظلام.

وفي المساء، تحلَّق الصيادون مع زوجاتهم وأبنائهم حول الموائد وارتفعت الأصوات، والضحكات والهمسات، ولكن العجوز لم يحضر. توتر الصبي وأخذ يبحث عنه في وجوه الحاضرين، ثم انطلق إلى منزل الرجل فلم يعثر عليه. عاد للحفلة وهو محبط ومنزعج، فقد كانا يعملان منذ الصباح، وحتى ساعة متأخرة من المساء معًا. وها هو يختفي عندما اجتمع الحشد.

ظهر العجوز بعد لحظات وكان يبدو عليه السكون والرضا، فاقترب منه الصبي وصاح به:

- أين كنت؟ لقد تأخرت!

- ها نحن نبدأ من جديد.. اهدأ.. اهدأ.

وانخرط بين الحشد فصاح بأعلى صوته:

- شكرًا لحضوركم، وتلبيتكم الدعوة. لقد قمت بإعداد هذه الحفلة لسبب ما، وأرجو منكم جميعًا أن تتبعوني نحو الغابة.

فقام الجميع بفضول، وساروا خلف الرجل بانصياع. وهنا تكمن المفاجأة. استقبلتهم الغابة بأنوار متلألئة. كانت مضيئة ولامعة.. تتوزع على الأشجار نجوم كبيرة وصغيرة.. فوق الأغصان، وعلى الشجيرات الصغيرة، والممرات المائلة. علت الدهشة ونظرات الانبهار وجوه الصيادين وقفز الأطفال في كل مكان مقتربين من تلك النجوم الغريبة!

لكزَ الصبي العجوز، وقال:

- هل قمت بصنع زجاجات على شكل نجوم؟ هل هذا ما كنت تخفيه عني طوال هذه المدة؟

- نعم. هل أعجبتك؟

صمت الفتى وانحنى أمام إحدى الشجيرات، وتفحّصها بعناية. كانت زجاجة مليئة مشكّلة بتقاسيم وانحناءات نجوم السماء، ومحشُوّة بالحشرات التي أطلق إحداها في القارب. وضع العجوز يده الكبيرة على كتف الصبي وقال بحبٍّ:

- لقد أردت أن أحقّق أمنيتك قبل فوات الأوان، فأنا كما ترى عجوز كبير، وأيامي معدودة. لقد صنعت الكثير من هذه الزجاجات لنعلقها على منازلنا وهكذا لن تفتقد النجوم طوال العام.

حتى نستمر

هل تؤمنون بالحبِّ من النظرة الأولى؟ لمَ لا؟ أوَليست العينان مرآة الروح؟ حسنًا.. هكذا التقينا أنا وزوجي "سالم". أحبني منذ أول لقاء، وأخبرني بذلك بعد زمن طويل، فأحببته يومًا بعد يوم.. ثم الطريق المشروع وهو الزواج. كان الحب ينمو بيننا كبستان حديث وقع للتوّ بين يدي راعيه الفلاح. نمت زهور الود، وحلّقتْ فراشات الاحترام، وسارت سحائب اللطف وديعة بين أيامنا.

أخبرني أنه لا يُنجب لكن حبنا كان أقوى. تركتُ عملي طاعة لرغبته مقابل العرض السّخي الذي وضعه بين يديّ، ولأنه يرفض أن يتمتع أي رجل بالحديث إليّ.. في الحقيقة غيرته مفرطة إلّا أنها لم تخنقني. جعلني أميرة كما كنتُ أحلم. أقضي ساعات في قراءة كتبي المفضلة، وأقوم بإعداد وجبة شهية لكلينا، ثم أتمدّدُ لقيلولة الظهيرة، وعندما أستيقظ، فإنني أستعدُّ لاستقباله. وأحيانًا، أغرق في ورشة الرسم خاصتي، وأسبح في عالمي بين الألوان وأصنع لوحاتٍ عملاقة غالبًا ما ينتهي بها المطاف إلى صديقة عزيزة بمناسبة سعيدة.

قضينا سنتين معًا نحقق أحلامنا المتروكة تحت الغبار، أحلامنا التي خطّطناها أيام الأمنيات في دفاتر ورقية بقلم حبر أزرق، وراكمتها السنوات الغادرة. زرنا البلدان التي بصمنا فوقها على خريطة العالم أمام السرير، ومارسنا كل شقاوتنا كطفلين حُرّيْن خرجا من سجن الانضباط والمراقبة. لم نكن ننام الفجر في عطلة نهاية الأسبوع، كنا نعد حقيبة الرحلات، ونأخذ بساطًا قطنيًّا،

ونفرشه على الرمال الرطبة ونشاهد الشروق أمام البحر. كنتُ أحيانًا أستلقي، وهو يقوم بترتيب المفرش، وتجهيز الطعام، وأحيانا يستلقي هو وأنا أصبُّ له فنجان القهوة، وأخرج تمرات وأسدِّدها في فمه، وأتحدث عن درجات لون السماء، وعن ذكرياتنا قبل اللقاء!

ذات ظهيرة، وصلتني منه رسالة يقول فيها إنه سيتأخر في العمل، وألَّا أنتظره للغداء ولا العشاء. ها هو يقوم بها للمرة الرابعة هذا الشهر. أجبت على رسالته "كل التوفيق ولا ترهق نفسك" فرد علي بصورة قلب نابض. يعجبني في "سالم" شغفه بالعمل، والبحث عن كل شيءٍ يحول دون فهمه للأمور، أو يعيق تخيله للأحداث، فهو قارئ نَهِم ومطّلع بصورة جنونية، فأحيانًا عندما أحكي له عن جمال أزهار "الليلك"، ولم يكن قد سمع بها من قبل، فإنه سيلتقط هاتفه، ويدخل صفحة البحث عن هذه الأزهار، وأماكن تواجدها، وموسم تفتحها، والحدائق التي تتزين بها، بل وقد يصل به الأمر أن يقرأ عن استخداماتها، وكيفية توريدها لبلدان أخرى. غالبًا ما أشعر بالشفقة عليه؛ فالوقت الذي يستغرقه في البحث والمطالعة قد يحرمه عن أشياء أكثر أهمية، ولا شكَّ في أن هذا هو أحد الأسباب التي تجعله يتأخر في العمل.

عاد إلى المنزل الساعة التاسعة والنصف مساءً بوجه شاحب، وأكتاف متهدلة وعينين حمراوين، فأرعبني منظره. ألقى التحية بصوتٍ مكتوم وهو يضع حقيبة حاسوبه ومفتاح السيارة على طاولة الصالة، لم يلمّح لأناقتي التي استقبلته بها والعطر الجذاب الذي يطيحه في حضني حال وصوله. نظر إليّ بتعب وتمتم:

- رأسي يؤلمني.. يكاد ينفجر!

أمسكتُ يده، وسمح لأصابعه بأن تتخلل أصابعي وقدته للمطبخ، أجلسته على الكرسي وناولته ماءً، ثم وضعتُ له حساء الخضار الذي يحبه. هزّ رأسه نافيًا..

- لا أملك القوة لابتلاعه..

- ما الذي تفعله لهذا الوقت المتأخر؟ هل يدفعون لك مقابل الساعات الإضافية؟

صمتَ بتبرُّم. لم يكن يريدني أن أواصل، ففهمت وجلست أمامه أنتظر ماذا ستكون خطوته التالية. لكنه اكتفى بالقبض على رأسه، والتحديق في انحناءات خشب الطاولة. قمتُ إليه، واحتضنته بشدة من الخلف. لو أنه يبكي حتى أفهم ما بداخله. هو بارع في الصمت، ولم يتحدث أبدًا عن مشاكله مع مديره إلا في تلك المرة التي سمعتها يفضفض بانفتاح لصديقه عبر الهاتف.. تذمّر كثيرًا وشكا حاله البائسة لساعات. لففتُ يدي اليمنى حول عنقه، وأخذت أمسِّد كتفه باليد الأخرى. سمعته يتنهد، ثم ضحك بوهن:

- أنا بخير.. أحتاج للنوم فقط!

بعد أن تأكدتُ أنه نام بهدوء، دلفت للمطبخ من جديد لأغسل الأطباق، وأرتِّب الطاولة، وأعد شطائر وفواكه ليأخذها معه في يوم تعيس آخر. لم أنتبه لنفسي إلا عندما سقطت دمعة ساخنة علىَ ظاهرِ كفّي. لم يعد سالمُ كما كان.. غائب دائمًا وجاف كثيرًا. قطعت شريط الذكريات الحزينة التي هبطت فجأة، تركتُ كل شيء في مكانه الصحيح، وغططتُ إلى جانبه في نوم بطيء.

فجر بارد وصباح مرتبك، راقبتُ سالمًا وهو يضع غترته على مضض متظاهرًا بالقوة والنشاط. ناولته حقيبة الطعام عند الباب، وسألته بصوت يتلاشى قبل نهاية الجملة:

- متى ستعود اليوم؟

سمع سؤالي، وأجاب بوضوح:

- لا أعرف، سنرى. مع السلامة!

أقفلت الباب، وجريتُ نحو النافذة أتابعه، وهو يركب سيارته. كم يبدو نحيفًا بساقيه التي تظهر عند ركوبه سيارته الضخمة! يبدو جروًا صغيرًا بداخلها. أضحكتني خاطرتي، ولوّحت له وأنا أعرف أنه لا يراني. كثيرًا ما كنتُ أتخيل نفسي وأنا أحتضن هذا الإنسان قبل زواجنا.. أحتضن آلامه وكل معاناته السابقة، واحتضن وحدته بين أمه وأبيه اللَّذيْن لم ينجبا سواه. عندما احتضنته لأول مرة شعرتُ بسعادة غامرة ملأت روحي كلها، فأخذ قلبي يرفرف، وسالت دموع الفرح. دُهِشَ سالم عندما رآني أبكي، لم يكن يعلم أن دموعي دائمًا على أهْبَةِ الاستعداد لكل شيء.. لكل شيء!

بعد انقضاءِ ساعات طوال، ودخول الظلام إلى جميع الغرف، سمعتُ صوت الباب الرئيسي وهو يُفتح، ثم ارتطام حذائه الرياضي على الأرض كما يفعل عادة عندما ينزعهما وهو واقف ومتكئ على الجدار.. أصَخْتُ السمع. هدوء مستفز يدفعني للاستطلاع، ولكنني غضبى، وسأتظاهر بذلك حتى يمتثل أمامي. لن أستقبله، فقد سئمت المبادرة دائمًا. حان دوره ليعتذر، أما أنا فسأبقى مع ورشتي. انكببتُ على لوحتي محاولة صبَّ جامّ تركيزي في تفاصيل الزّهر والظلال. قرّبتُ وجهي حتى تصاعدت رائحة الزيوت إلى رئتي، ثم..

- السلام عليكم!

كان "سالم" واقفًا عند عتبة باب ورشة الرسم باديًا عليه التعب، ممتلئًا بالغموض ووجهه مصحوب بتلك الابتسامة التي أعشقها. رددتُ السلام بعد أن خفضتُ رأسي وأكملتُ عملي كأنني لم أفاجأ بزيارته إلى مرسمي. تحرَّكَ خطوتين للأمام، ثم أسند ظهره للحائط، وعقد ذراعيه حول صدره، وبات يراقبني. ارتبكتُ؛ لأنه لم يقلْ شيئًا ولم يعلق على تجاهلي له. فبادرتُ بسؤاله:

- هل أكلتَ غداءك؟ أو ربما يجب أن أقول عشاءك؟

همهم بنعم. أضفتُ:

- ألستَ متعبًا؟ يمكنك أن تسبقني للفراش. أنا سأكمل هذه اللوحة..

لم تكن هناك أيّة إجابة ممّا اضطرني لرفع رأسي، ونظرتُ لعينيه مباشرة. تلك الابتسامة لا تزال في مكانها. سألته بتوتر:

- ما بك؟

- لا شيء. أحب أن أشاهدكِ وأنتِ ترسمين، أشعر بأنني أمتلكُ شيئًا نادرًا!

ثم ضحك بنبرة طفولية وأكمل:

- سأبقى واقفًا حتى تنتهي، سنأكل العشاء سويّة.. ونتحدث قليلًا، ثم ننام سويّة!

الشاطئ الأسود

هنـاك الكثيـر مـن الأشـياء التـي لا نعرفهـا فـي هـذا الكـون العملاق. أشياء تحدث، وذبذبات تهتزّ من حولنا، وأصوات تحلّق حول أجسـادنا، ولكننـا لا نسـمعها.

فـي جـزءٍ مرتفـعٍ مـن الكـرة الأرضيـة، حيـث تكثـر الظواهـر الغريبـة، ينـام البحـر علـى سـاحل مـن رمـال سـوداء تحرسـها جبـال منتصبـة. دعونـا نَغُصّ قليـلًا إلـى تجوُّفـات تلـك الجبال. هنـاك بياضٌ يكسـر اللـون الداكـن الممتدّ علـى الأرض. كائـن بشـريّ صغيـر علـى ما يبـدو.. إنهـا فتـاة تلتحـف فـي كومـة شـعرها الفاحـم، ويختبـئ جسـدها النحيـل فـي رداء أبيـض فضفـاض. مـن أيـن جـاءت؟ ولمـاذا تنـام هنـا لوحدهـا؟

سأكتفي بمراقبتها الآن.

عندمـا فتحتْ عينيهـا لأول مـرة، وكانـت لا تـزال مسـتلقية علـى ظهرهـا، رأت فوقهـا سـوادًا متناهيًـا تتناثر فيه بقعٌ مضيئة تلتمع تارة، وتخبـو تـارة. ويلـفُّ الأجواءَ صمتٌ رهيب أجبرها على تحريك أطرافها بعد جهد طويل.. قبل أيِّ شـيء.. أخذت تتلمّس يديها، فكانتا ناعمتين طويلتيـن بهمـا خمسـة أطـراف متفرقـة.. ثـم تحسَّسـتْ وجههـا، فكانـت بـه عينـان واسـعتان يلفّهمـا شـعر غزيـر.. ثـم مـرّرت كفهـا علـى رأسـها، وفرّقـت أناملهـا بيـن تلـك الخيـوط الرفيعـة التـي لا حصـر لهـا.. كانـت الخيوط تصل إلى سـاقيها. لمسـت القماش الخفيف الذي يلتصق بها مـن الأعلـى، وحتـى أسـفل ركبتيها، وحرّكت سـاقيها، ثم شـعرت بنشـوة

نشاط تسري في جسدها، وحرارة تنبعث من أعماقها. كان بإمكانها أن تسمع صوت نَفَسها، ودقّات قلبها.

ثُم همّتْ واقفة بحركة من قوى الطبيعة لاحظتْ فيه رأسها وهو يبتعد عن الأرض. بدا شعور الرمل الناعم وهو يداعب أصابع رجليها لطيفًا ومدغدغًا، فأخذت تمرّغهما في الرمل وتلوحهما يمنةً ويسرةً حتى تراشق الرمل، واستقرّت حبيباتٌ في عينيها. آلمها ذلك.. فتوقفت عن العبث.. وبخطوات مائلة بعيدة عن الاتّزان.. رأت في الأفق خطًا فاصلًا به تموّجات لامعة ينتهي حيث ينتهي نظرها، فأثار في نفسها شيئًا من الفضول، فمشتْ خطواتٍ بعيدة. صار بإمكانها لمس ذلك الشيء الهائم على الرمل. انسال الماء بين أصابعها بعذوبة، لكنها ارتاعت، أو ربَّما أصيبت بقشعريرة من مياه البحر المتجمِّدة. تراجعت إلى حيث كانت ممتدّة وارتمت على الأرض، ويا له من سُباتٍ طويلٍ آخر!

صباح اليوم التالي.

اقتربتُ منها، وأخذتُ أشمّها بدءًا من ساقها المتجمّدة النحيلة، حتى بدأتُ أتحسّس شعرها بمنقاري. لقد تحرّكت.. أخيرًا. إنها تنبسط، وتحاول إخراج وجهها من بين خصلات شعرها، ثم ها هي تُبصر النور. لم ترتعبْ عندما رأتني أحدِّق فيها بعيْنيَّ الحمراوين، ومنقاري الضخم، وجناحيّ الكبيرين المتهدّلَيْن، كانا جناحَيْن هائلين، أجُرُّهما معي طيلة الوقت بدلًا من الطيران بهما. تفحّصتني الفتاة مَليًّا قبل أن تجلس، ثم بحركاتٍ واهنة فهمتُ أنها

تريد الجلوس، ولكنها لا تستطيع، فدفعتها من ظهرها حتى استقرَّت جالسة. سألتُها:

- من أنتِ؟ وماذا تفعلين هنا وحدك؟

لكنها لم تُجِبْ، ويبدو أنها لم تفهم ما قلته، فأخذت أراقب حركاتها المبهمة. حرّكتْ جميع أطرافها وكأنها تراها لأول مرة، وتبتسم، وتفتح عينيها باتساعهما وهي تنظر إلى أصابع يدها وتمررها على جسدها، ورداءها الناعم. رحتُ أمشي مبتعدًا عنها، فهجمت عليّ كالضفدع حتى لا أفلت. في الحقيقة لقد أرعبتني.. ظننت أنها ستأكلني، فأنا لا أعرف حقيقة وطبيعة هذا المخلوق. "لماذا لا تقف على رجليها؟" تساءلتُ في نفسي. ولكنها وقفت البارحة من تلقاء نفسها! حاولتُ التملّص من قبضتها، ففردت جناحيّ الكبيرين حتى أسقطتها أرضًا وجريتُ مبتعدًا، ثم حلّقتُ فوق رأسها. نظرتْ إليّ بتعجب واستحسان. حاولتْ الوقوف مجددًا، لكنها أصبحت تعرج وترتجف بقوة، ثم تمايلت وسقطت.. أشفقتُ عليها، فهبطتُ. سألتها ثانية:

- ألا تستطيعين الكلام، ولا الوقوف؟

فانكبّتْ علي تحتضنني، وتمسح على منقاري الأصفر، وتتحسّس الجزء المنتفخ عند ذقني. يبدو أن هذه الفتاة الغريبة قد ضاعت، أو فقدت ذاكرتها، أو ماذا؟ ولكن لماذا لا تستطيع المشي؟ هل سقطت من أعلى الجرف؟ ولكن ثيابها تبدو بحالة جيدة، ولا يوجد أي أثرٍ لتمزّق أو تلوث أو حتى جُرح؟ ما قصتها؟

مشيت أنا أمامها، وأخذتْ تحبو خلفي. اصطحبتها في جولة على امتداد الشاطئ الأسود. كانت الأمواج تضرب الصخور العملاقة بقسوة، ولكنها تجري على الرمل بحركات سريعة ومتوالية كأنها تتحدث إلينا، أو سعيدة لمجيء أحدهم إلى هذا المكان النائي.

انزاحت الشمس نحو المغيب، واجتاحني شعور بالخوف تجاه هذه المخلوقة التي لا أعلم من أين جاءت؟ أقبلتُ أحدّثها من جديد:

- هيّا بنا.. سنغطس في الظلام الآن. لنعود إلى جُحرك. هل أنت جائعة؟

أومأت برأسها نفيًا كأنها فهمت ما قلت. غمرتني السعادة؛ لأن هناك أملًا في التواصل بيننا، أضفتُ:

- لم لا؟! يجب أن نعود.. ستصابين بالبرد إن بقيتِ هنا وحدك. الطقس بارد، وستنخفض درجة الحرارة أضعافًا في الليل.

فأسرعتُ الخطى، وتبعتني حبْوًا بكل انصياع. مشينا طويلًا. لم أكن انتبهت من قبل أنه بات من الصعب عليّ المشي لمسافات طويلة فقد تقدم العمر بي كثيرًا. بركتُ في مأواها متعبًا فاستقرت هي إلى جانبي، وتكوّرتْ حول نفسها. أسدلتُ عليها جناحي الضخم، فنظرتْ إليّ بابتسامة واطمئنان. عندها شعرتُ أن وحدتي ستزول عمَّا قريب.

امتدَّتْ أشعة الشمس الباردة؛ لتغسل وجهها النائم..كنتُ أراقبها وهي تفتح عينيها ببطء. أشرت برأسي للأسفل لتنظر إلى السمك التي جلبته لها. كنت قد استيقظت قبلها بساعات قبل طلوع الشمس، واصطدتُّ لها بمهارتي أسماكًا صغيرة لعلها تتغذّى عليها.

قرّبتْ وجهها، وبانت عليها ملامح النفور والاشمئزاز، توقّعتُ أنه لن يعجبها، ولكن ماذا يمكنني أن أقدِّمَه لها في هذا المكان المجرَّد من بني جنسها!

ومرّتِ الأيام، وتتابعت روائع الشروق والغروب، ونحن نرصدها أمام البحر. ومضت أيام المطر والثلج بسلام. سكون الجبال مخيف؛ لأنه يخبرنا بطريقةٍ ما أنَّ التواصلَ في الكون يكون عن طريق الصمت. بدأت أفقد ريشي وقدرتي على الطيران، واتزاني بات مضحكًا جدًا لابنتي. ما عدت أقوى على المشي لمسافاتٍ طويلة معها. أما بالنسبة لها، فمن الجيد والجميل أنها تعلَّمت الوقوف باستواء، والمشي بحركاتٍ متّزنة، كما أنها استساغت طعم السمك، والأعشاب البحرية وأصبحت تلعق الصخور أيضًا.

صحيح أنني مستمتع برفقتها جِدًا، إلا أنني طمّاع كأيِّ كائنٍ آخر.. أريدها أن تتكلم! حتى لو بلغة البشر! هذا سِر، فنحن نفهم ما يقولون.. ولا يشترط فهمنا أن يكون حرْفيًا إلا أن الرسالة تصل.. نعم تصل من النغمة والإيماءات. تعلمت هذا من خبرتي في الحياة، ومراقبتي للصيادين مرتادي البحر. ولكن ما مشكلة هذه الفتاة؟ أتساءل كيف سيكون صوتها إن نطقت، وماذا ستقول؟ أو تصف أو تشتكي؟! هل هي إحدى تجارب البشر الفاشلة في الاستنساخ؟ أم أنها كانت طفلة جرفتها تيّارات تسونامي إلى هنا؟ التفكير بهذا مرهق ومؤلم. غدًا سأحاول الطيران، وآخذها للمدينة لعلها تجد مؤنسًا ومربيًا هناك.

وبالفعل كان، تدرَّبتُ كثيرًا على التحليق قبل أن أُقدِمَ على مجازفة كبيرة يُمكن أن نروح ضحايا فيها بسبب غبائي وأملي المفرط؛ لذلك نجحت في الطيران أخيرًا وساعدني أصدقائي طيور النورس الرحالين في تشجيعي، وحثي على أن أخوض هذه التجربة لأن هدفي سام. سآخذ عزيزتي إلى قرية "فيك" وهناك ستبدأ حياة جديدة كما بدأت هنا لوحدها معي. انتظرتها طويلًا حتى بانت أشعة الشمس من بين الغيوم الغليظة، استيقظت كعادتها سعيدة مبتهجة لوجودي إلى جانبها فقلت لها بحزم:

-سآخذكِ اليوم إلى موطن جديد، إلى قرية "فيك" ستحبينها؛ لأنها مليئةٌ بالبشر أمثالك. سيعجبك طعامهم، وسترتدين ثيابًا جديدة وثقيلة لتحميك من برد الشتاء القارس. سنطير إلى هناك، ثم أعود أنا إلى هنا. اتفقنا؟

كانت تنظر إليّ بتعجب، وكأنها لم تفهم ما قلت. غالبًا ما تنظر إليّ هكذا عندما تشعر بالخطر، لكنني كنتُ قد اتخذت قراري واحتياطاتي، وها أنا أمسك بثوبها بمنقاري الكبير من الخلف وأجري بها بسرعة.. أركض بسرعة.. ثم طرنا في الهواء! صاحت النوارس بفرح ومالت نحونا جهة الشرق. لا أستطيع أن أرى وجه ابنتي لا بُدَّ أنها خائفة حتى الموت، ولكن يجب عليها أن تتحمل، فالقرية ليست بعيدة، إنها مجرد دقائق وسيلوح لنا البناء الأبيض ذو السقف الأحمر، وسنشاهد المنازل الصغيرة وهي متفرقة على البساط الأخضر.

هبطتُّ عند مشارف القرية الساكنة، كانت النوافذ لا تزال موصدة، والطيور تزقزق لوحدها. جلسنا أسفل شجرة رفيعة كانت

أوراقها تتمايل مع نسيم الصباح. نظرتُ إلى ابنتي بحزن، يبدو أنها تحت أثر الصدمة، كانت تحبو كطفل وتتحسّسُ العشب بكلتا يديها وتشم الأوراق المتساقطة، والأهم من ذلك كانت تضمُّني إليها بين فترة وأخرى. هل شعرَت أنني سأتركها الآن؟ لا أدري، ولكنني أريدها أن تكبُر بصحة وقوة.

تراجعتُ للوراء وفردت جناحيّ الكبيرين تأهُّبًا للتحليق بعيدًا، أبعد قليلًا من المكان الذي قابلتها فيه. انتهزت انشغالها بمراقبة الطيور المهاجرة، ثم حلقتُ متواريًا خلف الجبال.

ولم ألتفت.

لستُ متأكدًا كم مضى على تركي لابنتي، أسبوعان أم شهر؟ حتى ذاكرتي بدأ يصيبها الخرف! ارتعشتُ حتى مفاصلي، وأنا أفكر بالموت قبل أن أودِّعَها، ثم ندمتُ بألم وأنا أفكر كيف سأطير مجدّدًا لأزورها في القرية؛ لذلك أخذت أمشي بوهن لأصل إلى الساحل، حيث يكتظُّ السياح لمشاهدة الشاطئ الأسود وهو يلتحم مع الأمواج البيضاء. ركبتُ الحافلة بلا مُرشد. وكلّي أمل أنها ستأخذهم إلى القرية، وكان ما رنوْتُ إليه. ها هي القرية بلونها الشاحب تعلن عن قدوم شتاء مظلم. أسرعتُ الخطى مع الأقدام البشرية، وقاومتُ أيدي الأطفال الخانقة. شاهدتني النوارس وهي تحتمي في عُشِّها، وسألتني عمّا أبحث عنه، فالمكان خطر وهو يعجُّ بالعقول الفضولية.

ساورني أمل بأنَّ أحدهم كان قد رآها، وهي تنعم بحياة كريمة، ولكن الجواب كان مخدّرًا! قال لي أحد النوارس وهو يهبط من عشه باتّجاهي:

- أعـرف عمَّـن تتحـدث، إنهـا الفتـاة الغريبـة التـي هجرتهـا، ورحلت بعيدًا، فبعد أن اختفيت عنها، مكثتُ تبحث عنك باستماتة. رأفنا لحالها، فقررنا أن نتقاسم معها وجبات غدائنا.. لكن لك أن تتخيّل، فقد اختفت الفتاة هي أيضًا في اليوم التالي. وعندما أقول اختفت، فإنني أعني أنها تبخّرت.. هي ليست موجودة، ولم يأخذها أحد من البشر. فتّشنا عنها في كل بقعة صغيرة، وكبيرة من هذه الجزيرة ولكن.. لا وجود لها!

وهذا كان آخر ما سمعته في حياتي!

الدمية الخشبية

كان طويل القامة. يتمايل في مشيته للأمام كأنه على وشك السقوط على وجهه، ويداه تتأرجحان على جانبَيْ ركبتيه بحركات مشلولة. وجهه امتلأ بالشعر حتى صار شنبه شلّالًا على شفتيه، وشعر رأسه منسدل على ظهره قد اختلط لونُهُ البنُّيُّ مع سترته البُنِّية الداكنة. كان رأسه مصوّبًا نحو الأرض كعادته وهو يمشي بين أزِقّة المدينة الصاخبة.. يسمع كل شيء حوله بوضوح تامّ.. وإذا اقتربتْ منه سيارة أو شاحنة، فإنه سيرفع كتفيه، ويضع يديه على أذنيه من شِدَّة صخب صوت مرورها. وإذا تحدث إليه شخص، فإنه سيرمقه بنظرة خاطفة ويحرِّك رأسه يمنةً ويسرةً ويولي ظهره هاربًا.. كان منظره مريبًا دائمًا لصاحب المحل الذي يشتري منه ثلاث علب حليب طازج من دون أن يضيف لقائمة مشترياته، أو ينقص منه شيئًا. حاول صاحب المحل استدراج الرجل المريب إلى أيِّ حوار، أو نظرة لكنه لم يرفع نظره للناس أبدًا، ويكتفي بإصدار صوت حشرجة من حنجرته معلنًا الاستجابة.

هذه المرة اختبأ صاحب المحل الشاب خلف أحد الرفوف الخشبية إلى جانب طاولة الحساب.. لم يكن هناك زبائن في محله خصوصًا أن الوقت كان متأخرًا في الليل سوى من هذا الرجل الطويل، وبيده علب الحليب الثلاثة. عندما اقترب الرجل ليدفع حسابه لم يشعر بوجود أحدٍ أمامه، فرفع بصره للحظات؛ ليتأكد من حدسه، عندها أخرج ثمن الحليب بالضبط ووضعه على الطاولة، وأخذ كيسًا، وحشر

فيه العلب، ثم غادر. شعر صاحب المحل بالخيبة؛ لأنه كان يتوقع من الرجل أن يصيح: "هل هناك أحد؟" ولكنه لم يفعل. لبس الشاب كنزته الثقيلة، وقبعته، وقفل المحل، وانطلق يلاحق ذلك الرجل.

صوت وقع أقدام الناس على الرصيف الجاف.. خشخشة أكياس المحلات.. حديث متداخل.. أبواق سيارات، ودراجات نارية.. وصوت أنفاسه وهو يمشي مسرعًا كأنه في حلقة مطاردة. لحقه صاحب المحل حتى تعب الرجل، وجلس داخل محطة انتظار الحافلات.. ثم جلس إلى جانبه صاحب المحل الشاب بكل خِفّة وهدوء. لم يُعِره الرجل أيّ انتباه.

- أين تسكن يا صاحبي؟

بادر الشاب بالسؤال وصوته يمتلئ بالحماسة والقوة. ارتبك الرجل، ورفع كتفيه عاليًا قُربَ أذنيه، ولم يلتفت للشاب. أضاف:

- أراك دائمًا تشتري الحليب من دكاني، ولكنك لا تتحدث أبدًا ولا تنظر إليّ عندما أحدثك. هل تعاني من شيء ما؟ هل تريد المساعدة؟

هنا التفت إليه الرجل بعينين حائرتين، وظل ينظر إلى الشاب لبرهةٍ، ثم حرَّك رأسه يمينًا وشمالًا، وهمّ بالقيام لولا أنَّ الشاب أمسكه من ذراعه.

- أنا أعرفك منذ أربع سنوات على هذه الحال، وقبل أن يموت أبي كان يقول لي "يجب مساعدة هذا الرجل.. لأنه يغرق".

سكت الشاب قليلًا ثم استهلَّ..

- ما رأيك أن نذهب للحديقة العامة؟ إنها لا تبعد من هنا إلا

دقائق.. فقط اتبعني.

عندما بقي الرجل ثابتًا مكانه.. أخذ الشاب من يده كيس الحليب، ثم أمسك بذراع الرجل يقوده كدُمية خشبية.. كبيرة الحجم، ولكنها تنقاد من قَبَلِ أصحابها. مشيا طويلًا، ولم تكن الحديقة قريبة كما ذكر الشاب حتى وصلا إليها أخيرًا.. بدت كئيبة جدًا من دون أطفال يملؤون أراجيحها، ويتوزعون في كل بقعة منها. كانت فراشات الليل تلتفُّ حول إنارات الحديقة بجنون، والأشجار تقف في سكينة على أطراف الممرَّات الخالية. أخذ الشاب نفسًا عميقًا وقال بصوتٍ عالٍ وهو يشير للأعلى:

- انظر للأعلى!

تردَّد الرجل قليلًا، وأخذ يتلفت كثيرًا حوله، ثم رفع رأسه نحو السماء. كانت عظيمة.. مهيبة.. واسعة.. سوداء.. خالية تمامًا من السحب إلا من بعض النجوم المتناثرة. بدأت عينا الرجل تكبر، وتصحو من سبات عميق، وشفتاه تتفتَّح وصدره ينتفخ، ويصعد ويهبط، ثم شعر بدوران، فسقط الرجل على ركبتيه من هَوْل المنظر. حاول الشاب مساعدته في النهوض، ولكنه أبى ذلك، ثم وضع الرجل يده على فمه، وقد امتلأت عيناه بالدموع.. وأخيرًا نطق:

- لقد تغيرَّتِ السماء! لم تكن هكذا عندما رأيتها آخر مرة! لا أكاد أصدق ما أرى..

هنا ابتسم الشاب ابتسامة رضا، وجلس إلى جانب الرجل ينظران إلى السماء.

عاملة في شرفة

فجرٌ آخرُ من أيام الصيف الرّطبة، أغلقتُ أنوار غرفتي لأسمح لأضواء انفلاق الصبح بالدخول إلى مساحتي. لملمتُ الستائر وربطتها بشريط عريض، ثم وقفت أتأمّل منظر المنازل المتجاورة، وتجوّل الحمام فوقها، وأراقب انسكاب الظلال على الأسطح. لم أنتبه للوقت وهو يمضي، حتى انفتحت شرفة المنزل المقابل عن عاملة رشيقة ببشرة سمراء لامعة تلفّ حول رأسها شالًا أحمر، وتتأبَّط ثوبها. خرجت من النافذة وبيدها خرطوم ماء، ومشت بقدميها العاريتين على بلاط الشرفة، وهو يغتسل تحت الشلّال المتدفّق من يديها.

ولكن هناك ما يزعج، وجهها يكسوه الحزن، والانقباض نوعًا ما.. برغم ملامحها الهادئة والمريحة، إلا أنها كانت مقطّبة، وأخذت أسرد القصص في رأسي عن ألوان الشقاء الذي يعتصر قلبها الفَتيّ! كانت تغسل الأرضية بشرود، والماء ينسكب من الأعلى على الأرض الإسمنتية في صوت منعش. تساءلتُ "هل تناولت إفطارها؟ أم أنها تعمل بمعدة خاوية؟!" ثم كسر شرودي صوت الدراجة النارية لموزّع الجرائد. دخل المجمع بقوة، ووقف أمام المنزل المقابل لمنزلنا.. المجاور للمنزل الذي تعتليه العاملة. قذف الجريدة بيده لتستقر عند عتبة الباب. تراجع خطواتٍ وهو لا يزال جالسًا على الدراجة ليستطلع مصدر الماء المنسكب!

رفع رأسه للأعلى، فوجد العاملة، وهي منغمسة في شطف الماء عن الشرفة. صاح بها بكلام لم أفهمه، فتلقته الفتاة الشابة باستغراب. أضاف كلمات أخرى وهو يضحك، فضحكت هي الأخرى.. ثم انطلق صاحب الجرائد مغادرًا. بقيت أنا أرقب ملامح العاملة. كانت هناك ابتسامة خجلة على شفتيها.. سعيدة نوعًا ما، فابتسمتُ أنا أيضًا، ثم توارت تلك الباسمة خلف نوافذ الشرفة العملاقة، مخلفة وراءها أرضية لامعة وبسمة على وجهي.

هجرة الكروان

تجمّعت أسرابُ الطيور المهاجرة عند ضفة بحيرة ممتدّة لتلتقط أنفاسها، وتعاود التحليق إلى موطنها من جديد. كانت البحيرة تلتمع أسفل الشمس التي أوشكت على الزوال، وبقيت ظلال تلك الطيور المستقرة على صفحة الماء ترسم لوحة فنية بديعة يتهافت المصورون لالتقاطها. أسرابٌ تحلق وتحطُّ مكانها سلالات أخرى. مزيج وأمم من الطيور النادرة والمعروفة وألوان متناسقة تُضفي للطبيعة زينة خلابة. حلّق بلبل أمام هذا المشهد البديع، وحطّ على غصن شجرة عملاقة تظلل تلك البحيرة. عندها عبّر عن سعادته، وانبساطه لهذا المنظر بأغنية جعلت جميع الطيور ترفع أعناقها، وتستمع له بصمت وأنس. كانت الأغنية تتحدث عن السلام والحب والأمل. عندما أنهى البلبل أغنيته، حلّقت حوله الطيور شاكرةً ومودعةً معلنة رحلتها من جديد.

لفت نظر البلبل طائر بقي واقفًا لوحده ينظر إليه بعينين حادَّتين. أخذ البلبل يحدِّق فيه هو الآخر حتى طأطأ الطائر في الأسفل عنقه، والتقط سمكة كانت تتمايل أسفل ساقه، وأسقطها في فمه بخفةٍ ورشاقة. التقط ثانية وثالثة، والبلبل ينظر إليه من الأعلى. عندها التفت ذلك الطائر إلى البلبل من جديد وقال:

- هل تشاركني هذه السمكة؟

رفرف البلبل، ونزل بالقرب من الطائر:

- لا آكل السمك ولكن شكرًا.. أنت صائد ماهر!

ضحك الطائر قائلًا:

- وأنت مغنٌّ بارع!

ضحكا معًا، ثم سأله البلبل:

- من أيَّة فصيلة أنت؟

- فصيلة الكروانيَّات..

- الكروان إذًا.. لقد سمعت عنكم. هناك العديد من الكروانيات ولكنكم لا تتشابهون إطلاقًا. أنت أول كروان أتحدث إليه..

ثم رفرف البلبل حوله، ووقف على العشب بجانب البحيرة:

- هل قررت الهجرة هذا الموسم مع الجميع؟

صمت الكروان قليلًا، ثم أجاب:

- أنا لا أهاجر عادةً..

ثم أشاح بوجهه محتفظًا ببقية الكلام. خرج من الماء، وهزّ ساقيه بحركاتٍ متسارعة، فتراشقت قطرات الماء على البلبل كالمطر. اعتذر الكروان، ومشى خطوات بطيئة. تبعه البلبل قفزًا:

- هل لديك عائلة؟

- لا..

- هل فقدتهم؟

- تخلّوْا عني منذ سنوات..

- ولكن لماذا؟

- لأنني مختلف عنهم..

- كيف ذلك؟

توقّف الكروان عن المشي، وحَدَجَ البلبل بغضب، فحلّق البلبل ذعرًا. ضحك عليه الكروان:

- كم أنت مضحك أيها البلبل! أنا أيضًا يمكنني الطيران أتعلم ذلك؟

قال البلبل بنبرة مرتابة:

- هل أغضبتك؟ أنا آسف.. كنت فقط أريد التحدث معك.

ومن دون أن ينتظر ردًا من الكروان، طار عاليًا مختفيًا بين أغصان الأشجار المكتظة. خفض الكروان رأسه، فهذه ليست المرة الأولى التي ينفر فيها طائر منه بسبب سلوكه المريب. أن تكون مختلفًا يعني أن تكون مستعدًّا للوحدة؛ فالعالم لا يقبل الذين يسلكون دروب العَجَب والتصرفات الشاذّة. طار الكروان، وهو يحمل في رأسه هذه الأفكار العميقة، وقد تجدد فيه الشعور بالحزن والذنب.

ثم يمحو الصباح آثار آثام البارحة، ويبث فيك نسيم الأمل. ترنح الكروان حاملًا في صدره عتابًا كبيرًا لذاته وبصيصَ تفاؤل للقاء البلبل من جديد، وما الذي سيجعله يرغب برؤية البلبل إلا لأن الندم أخذ يقرصه طوال الليل، ويأكل من طاقته ما كان يدّخره للهجرة في ظلّ وطأة قرار مفاجئ.

ولحسن حظه، ظهر البلبل بطلّتِه البريئة قُرْب البحيرة ليشرب الماء مع مجموعة من سلالته اللطيفة. أقبل الكروان يمشي على وجل، فحيّا البلبل بتواضع، وصمت منتظرًا الإجابة، فأتته على الفور بوُد:

- مرحبًا بك من جديد أيّها الكروان!

ردَّ الآخرُ بارتباكٍ واضح:

- إنني مختلف؛ لأنني آكل السمك، وأطير ولا أهاجر مع السِّرْب، وأتكيَّف في كثير من البلدان!

ضحك البلبل وصاح وهو يتّجه نحوه:

- هل كنت تتدرَّب على الجواب ليلة البارحة؟ يا لكَ من غريب الأطوار! ولكنك مُسَلٍّ..

- شكرًا لك. لقد قررتُ البارحة أن أهاجر.. لوحدي..

- لوحدك؟ ولكن لماذا؟ ألا تعجبك الأسراب؟!

- نعم..

اقترب البلبل متأثرًا، وقال بأسى:

- تبدو متألمًا يا صديقي؟ لكنني لا أريد أن أسألك أكثر، فتغضب مني!

أجاب الكروان من دون أن يلتفت إليه:

- هل تعدني أن تكون صديقًا وفيًا؟

- بالتأكيد!

- ما هذا؟ إنك حتى لم تفكر في قرارك.. كيف لي أن أصدقك؟

دُهِشَ البلبل مجددًا، وبدا عليه الاستياء لكنه تمالك نفسه، ولاذ بالصمت طويلًا. هنا تحرك الكروان، وراح يبحث بمنقاره عن الديدان بين العشب. غرز منقاره الطويل في التربة، واستخرج حشرة هاربة. أشار برأسه للبلبل ليأخذها. تردَّد البلبل قليلًا، ثم التقطها، بحذر والتهمها بشهية. نظر للكروان بعرفان، ثم طار مبتعدًا، وعاد مجددًا يحمل في منقاره الصغير حشرة تتلوى، ثم وضعها عند قدمَيِ الكروان.

وهكذا استمرت علاقة الطائرين بصمت. تبادلا الطعام مع قدرة كلٍّ منهما الاصطياد لنفسه، وترددت كلمة الشكر بينهما كثيرًا ولم يعد البلبل بحاجة للاعتذار في أغلب الوقت. خلال هذه الفترة القصيرة، عرف البلبل قصة الكروان الحزينة، فعندما فقست بيضة الكروان، وخرج يتنفس مع أخوته، حاولت أمه رميه بعيدًا لتفترسه التماسيح، وتفرّ مع صغارها الآخرين، أما الكروان، فقد ظلَّ يصارع مصيره البائس في الهرب من الأسنان الفتّاكة، والقلب المتحجّر الذي لَقِيَه من أمه. لم يكن يعرف لماذا تعامله بهذه الطريقة؟ لماذا هو بالذات؟ وعندما سألها مرة عن سبب هجرانها له، أجابت ببرود:

- " يجب أن يكون في كلِّ سلالة من الطيور، طائر واحد ليضحِّي بحياته من أجل بقية العائلة".

ولكن لم هو بالذات؟! بقيَ الكروان يتساءل حتى صلب عوده واستقامت حياته جرّاء مناضلاته، وحروبه. كان قويًا من الداخل ومخيفًا من الخارج ومن الطبيعي أن يفتقر إلى أصدقاء حتى هذه اللحظة. رحلت عائلته من دون سابق وداع، حتى وجد الكروان نفسه وحيدًا تمامًا وجافًا من نظرات الأسى التي كان يتلقاها من إخوته. افتقد شعوره بالحقد والغيرة، لم يعد هناك من ينظر إليه من بعيد ليعايره بمكانته، حتى فقد الإحساس بكلِّ شيء. أصبح مهملًا لنفسه وريشه وحتى صوته، نسي كيف يتكلم مع أحدهم بجمل مفهومة ومكتملة.

ومرت الأيام، ثم دخل إلى حياته كروان أعمى مَهيب، وله عمر طويل، ومعارف كثيرون. لم يتردّدْ ذلك الطائر في احتضان الكروان الفتي الوحيد. ضمّه لجماعته أثناء ترحاله وصيده وهجرته. استمع لقصة الكروان الفتي، ورأف لحاله واعتنى بجراحه العنيدة، وأخلاقه الشرسة، حتى عاد لصوابه وأقبل على الحياة بروح جديدة متقبلة للآلام. اجتازت الشهور تيارات لا تعرف الاستقرار. هناك من رحل عن المجموعة من إرادته، وهناك من جرَّه الموت ليهمس في أذنه بهدوء: "حان وقت الرحيل".

مرَّتْ سنة مُجدِبة على البقعة التي كان يسكنها الكروان الفتي وصديقه الأعمى، ثم صادفتهم أيام قاحلة أجبرتهم على الاستعداد للرحيل، ولكن أمواج اللهب كانت أسرع من الأجنحة. تهاوى الكروان الأعمى في الهواء، وسقط في الغابة الغاضبة، ولحقه الكروان لينقذه باستماتة. ولكن أشباح اللهب آثرت التهام صديقه الأعمى أمام عينيه.

شهر جديد سيقضيه الكروان الناجي لوحده أمام بحيرة لامعة في قارة باردة تتحول تضاريسها بتحوُّل الفصول. هناك، التأمت جراحه ببطء أمام جماعات، وسلالات من الطيور البديعة والأغاني البهيجة. ثم كان اللقاء مع البلبل الوديع!

عندما حان موعد الرحيل، واستعدت الطيور للهجرة نحو الجنوب، كان البلبل ممّن قرر المكوث في الغابة ليقضي بقية حياته مع صديقه الجديد، فقد أحبه لغرابته وظرافته، وبدت معالم شخصية الكروان تتّضح مع الزمن. تضحياته تتجلّى دائمًا أثناء تجوالهما بين

الشجيرات، وأمام البحيرة ووسط البراري الخضراء. كان مستمعًا جيدًا ومنتبهًا دائمًا في المواقف التي تتطلب الحِنْكة للخروج من مأزق المخالب التي تحلق فوق رأسيهما. أعجب به البلبل جدًا، ووعده بأن يصبح صديقه وصاحبه في ارتحاله، وإقامته.

ولكن حدث ما لم يخطر ببال أحد منهما، فقد هاجر الكروان كما خطط له تحت تأثير ليلة مضطربة. هاجر عندما كان الضباب يغطي الأفق، ويبدو أنه تعمَّد ألا ينتظر انفلاق الصبح حتى لا يستيقظ البلبل ويودّعه. لم يكن يظنّ الكروان أنه سيطاوع هذه الفكرة الغادرة، فاختفى مع أشعة الشروق الأولى.

عند بزوغ الفجر، طار البلبل فوق البحيرة أربع جولات لعله يسمع صيحة الكروان المُدَوَّية. ثم هبط على الأرض بعد أن تعب من الغناء والنداء، في البداية قلق خوفًا على الكروان من مصير بائس، لكن أحد الطيور رأف لحاله، وأخبره أنه شاهد الكروان وهو يفرُّ مبتعدًا نحو الشمال! صاح البلبل بتعجُّب وأسى:

- ولكن لِمَ إلى الشمال؟ البرد قارس هناك!

ومن دون أن ينتظر إجابة، طار البلبل عاليًا كالمجنون ووارته ظلال الأشجار الباسقة. أخذ يغني بصوت عالٍ متألم. غنى أغنية الفراق المفاجئ، كان لا يزال متأثرًا من صدمة الخبر فتخبط كثيرًا بأغصان الغابات الكثيفة، وتعثر بأسراب كانت تحلق فوقه، فخدش نفسه بمناقيرهم الحادة، لكنه لم يأبه للألم.. استمرّ بالطيران

والنداء على الكروان، ثم تحوّل زعيقه إلى بكاءٍ يمزق قلوبَ أقسى النسور.

ساعدته الجبال القوية بترديد صياحه في الفضاء الشاسع، تردد الغناء، والبكاء في ممرَّات جليدية، وأسفل النجوم المتلألئة. واصل المسير حتى أنهكه التعب، وبحّ صوته، وتوقف عن الغناء. أصبح عاجزًا عن الطيران، فاكتفى بالقفز بين الصخور والأعشاب وظهور الغزلان.

واشتدَّ صقيع الرياح، فاختبأت الحيوانات في جحورها وفي حفر الجبال، فلم يعجبه البلبل؛ لأنه كان يأمل أن يعثر عليه الكروان إذا مرّ من هناك. وكان على حق. فقد ظهر الكروان متواريًا من بين الأشجار. عندما سمع حديث الطيور عنه بدأ هو الآخر يبحث عنه، فوجده قبل أن يفعل البلبل، وبات يلاحقه بالخفاء، وعندما لم يحتمل رؤيته وهو مُسْتلقٍ على الأرض متجمّدًا بأنفاس مخنوقة، طار الكروان، وحطّ فوقه محتضنًا إيّاه بين جناحيه القصيرين. همس الكروان للبلبل معاتبًا:

- لماذا جئت إلى هنا؟

فتح البلبل عينيه بوهن، فلما رأى الكروان فوقه سَرَتْ فيه رعشة نشاط خفيفة، فقال بتعب:

- ها قد عثرت عليك! كنت أعلم أنني سأعثر عليك. لماذا اختفيت فجأة؟ لماذا غادرت من دون أن تخبرني؟ ألم نتّفق على أن نهاجر سوية؟

امتلأت عينا الكروان بالدموع، وهو يشاهد صديقه يصارع وحشية البرد، فضمَّه أكثر، وبكى وهو يقول:

-لقد كنت خائفًا.. خائفًا جِدًا من أن تغدرَ بي كما فعل الآخرون فأكرهك أنت أيضًا.

فتنهَّد البلبل براحة، وقال:

-ولكنني مختلف، مختلف عن الآخرين. سأسامحك إن أخرجتني من هنا. دعْنا نذهبْ إلى مكانٍ فيه الكثير من الفاكهة، فأنا متعبٌ وجائع.

كابوس النوم

أصبحتُ لا أنام.. بل لا أستطيع أن أنام.

الحلمُ ذاتُهُ يتردّد كلّ ليلة في مُخيلتي. النومُ الذي يعشقه الكثيرون أصبح أسوأ محطة ينتهي به يومي الطويل. أكره النوم، دمّر حياتي، جعلني أسيرة أفكاري، شوّهَ وجهي وأذهبَ بريق عينَيّ.

ظلامٌ دامسٌ، وسُحُبٌ حمراء، ومنازل خشبية بلا أبواب، ولا نوافذ، أشجار بلا أوراق ترسُمُ أجسادًا راقصة، أصواتُ بوم وأراجيح صَدِئة، وأنا وحدي أمشي في ذلك الفضاء اللّامتناهي. أمشي.. أرتطم بصخرة لم تكن أمامي. أجري.. فإذا بمياهٍ ضحلة تبلل فستاني الأبيض الطويل. أصرُخ .. فما من مجيب.. أبكي.. فلا يرأف لحالي حتى الشجر. أدخُل المنزل الخشبي، فتصفعني ريحٌ من الداخل كأنني ضيفٌ غير مرغوب به.

أعود إلى المكان الذي انطلقتُ منه، وأسلك طريقًا مُغايرًا للأول، فإذا بنفس الملامح تتحدَّد من جديد.

ما هذا المكان؟ لماذا يراودني هذا الكابوس كل ليلة؟ طيلة السنتين الماضيتين؟ أليس كل الناس لديهم أحلام مختلفة، وإن كانت مرعبة؟ لماذا لا أستطيع الخروج من هذا الكابوس إلى أن يأذن لي هو بذلك؟ لماذا عندما أحاول إخبار صديقاتي بهذا الكابوس يتسلقني شبحٌ ويُطبقُ على فمي، فلا أستطيع التفوُّه به؟

أحيانًا تشفق عليّ كوابيسي، فتغيِّر من خلفيّاتها، وألوانها. وتلاحقني الرياح. السماء بلون المستنقعات الخضراء القاتمة،

والأعشاب ترتفع لأعلى ركبي، وتصيح بي "اجري..اجري. لا مكان لكِ هنا". أمتثل لكلامها، وأجري وقلبي يضربني من الداخل. أكون مرعوبة من المجهول الذي ينتظرني في نهاية المطاف.. أخشى أن أسقط في هاوية، فلا يعثر عليَّ أحد، ولا ينادي عليَّ أحد. وحيدة دائمًا حتى في أحلامي!

هذه الليلة عندما قررت ألَّا أنام، رأيت كل شيء في حجرتي يتحرك. فراشي كان ينتفض وكأنه يقول لي: تعالي ونامي. الحبل الذي يتدلّى من المصباح بجانب السرير كان يتأرجح وكأن أخي الصغير يلعب به كما كان يفعل في السابق. تصبّبت شلالات من العرق، وأصبحت رؤيتي ضبابية. لم أعدْ أرى أيَّ شيء. مرَّتْ دقائقُ فإذا بصوتِ الدِّيك يعلن عن بزوغ الفجر.

الآن سأنام.

خواطر ومقالات

عندما يُعشق القمر

إلى القمر..

أكتبُ إليك هذه السطور؛ لأحكي لك قصة حبٍّ عجز اللسان عن البوح بها، وأَبَيْتُ إلا أن أكتبها على الورق. لستُ أدري متى بدأت أحبك.. وكيف؟ ولكن لا يهم هذا الآن. دعني أعترف بحبي لك، فكلماتي تكاد تقفز من قلمي وأخشى ألا تعود أبدًا!

قمري الوضّاء.. أحب فيك وجهك الصّبوح الرّقراق اللامع، أحب استدارتك الدقيقة حادّة الملامح، أحب النقوش التي رُسمت على وجهك لتحكي لي كل ليلة قصة مصورة جميلة ينسجها خيالي ويصدّقها عقلي. أحبك لجمالك الأخّاذ.. بل أنت الجمال بعينه..

أحبك بكل أطوارك وتحوّلاتك.. فأول ما تولد.. تولد معك ابتسامة صادقة تضفي إلى شحوب الليل بصيص أمل وتفاؤل لتعلن مولدك، وفرحتك بالمجيء، فلست أدري أأنت جدير بالفرح لمولدك، أم أنا أَوْلَى بالفرح بقدومك؟! أرفض أن يسمِّيكَ الناس هلالًا في طَوْرِكَ الأول؛ لأنني أقول إنها (ابتسامة القمر).

أحب فيك صمتك المطبق الرهيب.. لا تجاري صفير الرّياح، ولا طرق النجوم.. فهل يا ترى تصمت لتتركنا ننام بهدوء وراحة؟ أم أنك تريد أن تُوَلّد نيران الشوق والحيرة؟

أحبك لأنك علمتني أنه لا يأس مع الحياة، ففي اليوم الذي تموت فيه.. تعود غدًا، وتولد من جديد، وتعلن عن بداية حياة جديدة تبدؤها بابتسامة، وتنهيها بابتسامة.

أحبك لأنك تلك الشامة البيضاء على صفحة السواد المعتم..

أحبك لأنك تنظر إليّ باهتمام كلما نظرتُ إليك وتتبعني أينما ذهبتُ.. ومهما ابتعدتُ إلى مسافاتٍ بعيدة.. فستظل تتبعني بلا تعب.

أعرف أن ملايين البشر يراقبونك، ويرصدون تحركاتك.. بل وقد وصلوا إليك من شدّة إعجابهم بك.. أما أنا فسأبقى أحد هؤلاء المعجبين أنظر إليك من بعيد، وأطيل النظر كما أشاء، فلستُ أحاسب على نظراتي هذه، ولن يعاتبني أيّ معجب آخر. ولكنني سأوهم نفسي أنك اكتشفت حبي، لك وقبِلْتَني لأكون أحد جماهيرك المعجبين، وأظلّ أعيش معك قصة حب لا تنتهي.

عظمة الفجر

إنَّ لساعات الفجر الأولى عظمة لا يصيب منها إلا القليل من الناس، فالعظماء هم من صاحبوا الفجر، واتخذوا منه نديمًا لرحلاتهم الشاقة نحو قمم النجاح. ألا ترى معي كيف يستصعب الناس فتح أعينهم، ودفع النعاس بعيدًا، ومقاومة خمول جفونهم، فيختبئون في فراشهم حتى تلفح الشمس جدرانهم بأشعتها الأولى! إن الفجرَ كائن عظيم بطبعه، سام في معانيه وروحانيته، جميل في مظهره وطلَّتِه، فالسماء تتوشح بألوان سرمَدِيّة نورانيّة لا تزال تلتمع وسطها نجوم الليل، ونسيمه يعبق عند أول شهيق ولادته المتجدِّدة. وللفجر ألحانٌ لا يجيدها أيّ مطرب فنّان، أو مغنٍّ مشهور.. إنه صوت روح الطبيعة بحلّتها البديعة، ونفسها الطيبة.. تغني معه عصافير الصبح الأول، وتطبّل له أوراق الشجر بخِفَّة. ولزفير الفجر هواءٌ عليل يستمدُّ منه الآدمي قوةً ونشاطًا، وولادة عقل جديد متفتح، فيتدفق شعور بالسعادة، والانسجام الكوني حال وصول زفير الفجر إلى أعماق أعماقه، فتزداد ضربات قلبه حماسةً ورغبةً في التجوُّل في ربيع الفجر، فيتعرّف على أسراره ويكتشف شيئًا من مكنونات نفسه، وعقله.. وتأخذه رغبة جامحة في فعل شيءٍ ما.. شيء يجعله عظيمًا كعظمة الفجر.

فمن عظمة الفجر أن خالق الفجر أقسم به من بين سائر مخلوقاته التي لا تعدُّ ولا تُحصى، فلا يقسم العظيم إلا بعظيم.

ومن عظمة الفجر أنه يشترك في زمنين، فلا هو ليل ولا هو نهار، بل هو لوحة فنية لتدرُّجاتِ الأسود والبنفسجي.

ومن عظمة الفجر أنك تبتسم رغمًا عنك عندما تواجه الكون الفسيح لوحدك في صمت لا تسمع فيه إلا صوتك وصوته.

فالعاقل اللبيب هو من يحسن استقباله، ويتهيَّأ لطلوعه ويسعد بمرافقته. فمن حسن التصرف مع الفجر، قراءة ورد من القرآن الكريم؛ لتشحن به الروح، وتُسكِن به شتات العقل. ومن حسن التصرف ألا تعاود الاستلقاء على سريرك، وأن تغادر جدرانك الأربعة، وتتّخذ من السماء سقفًا، والعشب موطئًا، والأفق مرأى، وغناء العصافير لحنًا والنسيم متنفسًا، وترفع يديك مستسلمًا لبركة الفجر قابلًا به جسمًا يتلبس بك. ومن حسن التصرف أن تحمل ورقة وقلمًا، وتسطّر به أهداف يومك في نقاط. ومن حسن التصرف أن تنفق ولو درهمًا من رصيدك إلى رصيد الآخرة. ومن حسن التصرف أن تروي جسمك بماء الليمون قبل أن تتناول وجبة إفطارك. ومن حسن التصرف أن تدع الشمس تغسل وجهك بأشعتها الأولى، فتغدو آدميًا عظيمًا من أبناء الفجر.

أتمنى لو أنّني ما عرفتُ يومًا

أتمنى لو أنني ما عرفتُ يومًا أن القمر كوكب، لكنتُ ظننت أنه لؤلؤة ضاعت وسط محيط الليل.

أتمنى لو أنني ما عرفتُ يومًا أن الشمس نجم، لكنتُ ظننت أنها ابتسامة النهار.

أتمنى لو أنني ما عرفت يومًا أن النجوم غازات منفعلة، لكنت ظننت أنها سُرُج الليل التي تضيء صفحة السَّواد المعتم.

أتمنى لو أنني ما عرفتُ يومًا أن السماء بناءٌ مشيد، لكنتُ ظننت أنها لوحة الخالق البيضاء يلونها كيفما شاء بألوان الأفق السَّرمدِيّ.

أتمنى لو أنني ما عرفتُ يومًا أن الحبَّ أعمى، لما بقيت على حالي أبحث له عن عصا ليبصر بها.

أتمنى لو أنني ما عرفتُ يومًا أن أمي بشر وُلِدتْ كما ولدنا، لكنتُ ظننت أنها من ملاكٌ يمشي على الأرض.

أتمنى لو أنني ما عرفت يومًا أن الورود نباتات تخرج من بذور ميتة، لكنت ظننتها مجوهرات الربيع التي تتزيّن بها الأرض في فصول معيّنة من السنة.

أتمنى لو أنني ما عرفت يومًا أن أمواج الساحل تحدث بسبب هبوب الرياح، لكنت ظننت أنها شهيق البحر.

كأس من الشاي

عندما ينتابك الشعور بالضيق والاختناق من هموم يوم فاشل، فهل تلجأ إلى التخفيف من حِدّة مزاجك بمحاولة الاسترخاء والتناسي؟ أم أنك تلوذ إلى تنشيط عقلك ليستقبل المزيد من الأعباء، والمسائل الشاقة؟

نحن بلا شكّ نريد الهدوء والاسترخاء. وهل هناك أفضل من احتساءِ كأسٍ من الشاي الأحمر، والاستسلام لطعمِهِ حتى الثّمالة الحميدة!

كثيرٌ منّا يفقد روعة هذا المشروب بقلّة تفكّره وتأمله في طبيعته الساحرة، بل يعتبره مشروبًا صباحيًّا، أو مسائيًّا تلزمه التقاليد على تناوله في أوقاتٍ معيّنة، فلا يصيب من حظه إلا زيادة في سوائل جسمه، وبعض فوائد قد يجهلها هو نفسه.

الشاي بحدِّ ذاتِهِ له روحٌ وشعور، وأحاسيس تنعكس على سلوك شاربيه.

فللشاي حفلاتٌ خاصة، وطقوسٌ ومراسم.

وللشاي ألوانٌ، ونكهاتٌ، وروائح.

وللشاي فوائد روحيةٌ، وبدنية، وعقلية.

والشاي يجمع الأهل، والأصحاب والأحباب.

والشاي يأخذ صاحبه المنفرد بعزلته في جولةٍ روحيةٍ في سماء الاستمتاع، واسترخاء الأعصاب.

الشاي له جسمٌ لا يذوب، أو يضمحلّ تحت سخونة وجبروت الماء المنسكب فوق رأسه، بل تخرج روحه في صورة لون عتيق يتراقص بين موجات الماء الساخن حتى يغدو الماء بذلك اللون شفافاً ألِقًا كأنه جوهرة سائلة لم تجد لها طريقًا للتصلُّب.

الشاي هو بخور الفم والمريء، وعطر المعدة الفاتن عند احتضانه لأعشاب تحمل بين طيّاته جمال اللون، والطعم والرائحة.

"والآن هل ستعدّ لك أجمل كأسٍ من الشاي؟".

خذ هذه الورقة

خذ هذه الورقة.. لقد كتبتُ شِعرًا جديدًا..
خذها، واقرأها بعينيك، فأنا أحب عينيك، وهي تقرأ كلماتي
أحبُّ أن أنظر إلى ابتسامتك الساحرة،
وإلى عينيك الناعستين وإلى هزاتِ رأسك،
وجسمك كاملًا، وأنت تقرأ..
تبدو كَمَن يقرأ بروحه، فينعكس ذلك على شخصك..
دعني أتمعَّنْ في كونك الرّاقي، فأنا أريد أن تمتلئ عيناي بك
سآتي بأبيات شعرية نسجتها منك.
تقرؤها وأنت لا تدري أنها لك، ومنك!

رأيتُ في المنام

كنتُ أنا وأختي التي تكبرني بسنتين على ضفة شاطئٍ منْسِيّ، رملهُ أسود، وسرعان ما يتغيّر لونه ما بين الأصفر والأسود، كأنه شروق وغروب رملي مستمر. كنّا ننوي ركوب قارب شراعي لتجربة حياة الصيادين، والمغامرين برغم علمي وعلم أختي أنني أفزع من البحر وطيَّاته المتقلبة.

عزمنا على ركوب البحر وكأننا في أحد المسلسلات الكرتونية، ولكن لم يكن لدينا أيّ متاع سوى أنفسنا وذلك القارب الخشبي المصنوع من جذوع أشجار الصنوبر الرفيعة. كانت أختي تتحرَّك على القارب بنشاط أكثر مني، وتنتقل هنا وهناك للمراقبة، والتأكد من أن حبال الشراع مثبتة بإحكام. كنا نتمايل مع القارب يمنةً ويسرةً وللأعلى وللأسفل، ونراقب لون الشاطئ المتغيّر بين الفيْنةِ والأخرى كأنّه كائنٌ حيٌّ ضخمٌ يستعد لاستقبال فصلٍ خرافيٍّ هائج من فصول السنة. بدأت بالفزع عندما زادت ضربات موج البحر مع ذلك لم تلمسنا المياه. كان صوت الشراع وهو يتناطح مع الرياح مخيّمًا على الأجواء!

فاجأتنا عاصفة هوجاء، فاستلقيتُ بسرعة على بطني،

في حين كانت أختي تقاوم وهي متشبّثة بالشراع. ولكن.. في لمح البصر رأيت أختي وهي معلقة وسط السماء ممسكة بشدة بالشراع الذي تحول كالمنطاد. رفعتُ رأسي لأنظر إلى ملامحها، كان وجهها متشنِّجًا، وعيناها تصرخان بالنجدة. بقينا ننظر إلى بعضنا لبُرْهة من الزمن. هي في الأعلى تحتضن الشراع بقوة، وتحفّها السماء بلونها الأزرق الفاتح، وأنا في الأسفل رأسي مرفوع للأعلى، وعقلي يضجُّ بأفكار جنونية لإنقاذها. وأخيرًا قلتُ:

- استمتعي بالمنظر!

رمقتني بنظرة غاضبة، ثم بحركاتٍ منقبضة أخذت تتلفّت حولها. ابتسمتُ، ونظرت إليّ في الأسفل:

- يمكنني رؤية نهاية البحر!

فراودني شعور بالغَيْرة، فأخذت أسحب الشراع لأُنزلها.

عندما فتحتُ عيناي فجرًا كان قلبي يخفق بشِدَّة، وقد ارتسمت ابتسامة غريبة على شفتيّ!

خطيئة القهوة

في تلك الليلة الصَّاخبة..
شربت فنجانين من القهوة من دون أن أدري،
وعندما فرش الليل ظلامه..
بقِيَتْ عيناي مغلقتين برجفة..
وأَبَى عقلي أن ينام حتى مطلع الفجر..
وعندما تهلَّلَ الصُّبْح بنوره..
تهدَّلَتْ مقلتاي بالسّهد،
واستسلم عقلي للفراغ السَّرْمَديّ،
وغاب عني صبح من حياتي!

السعادة في سطور

• السعادة هي أن تقلِبَ آخر صفحة من الكتاب الذي طالت رحلتك معه.

• السعادة هي سماع زقزقة أول عصفور عند طلوع الصبح.

• السعادة هي مراقبتُكَ الشمس، وهي تشرق وتغرب في الأفق.

• السعادة هي مشاهدتكَ لطفل يمشي لأوَّل مرة في حياته.

• السعادة هي أن يتَّصل بك من تُحب في الوقت الذي تُمسكُ فيه هاتفك لتتَّصل به.

• السعادة هي ضحكة تخرُج من أعماق عامل نظافة لعِبتْ الشمس في وجهه والتربة في ملابسه.

• السعادة عند أوَّل رشفة من ماء شديد البرودة في يوم شديد الحرارة.

• السعادة عندما تفتَح عينيك من سباتٍ عميق، وأول ما تراهُ وجه طفل بريء مبتسم، ويحدّق في تفاصيل وجهك.

• السعادة قطّتك التي تجري نحوك مسرعة، لا لطعام تطلبه، بل لأنها تحبّك.

• السعادة في تنهُّدك عند الانتهاء من مشروع (كبير أم صغير)، وقد يكون حياكة قفّاز من صوف.

• السعادة أن تمشي حافيًا على الرمال في يوم معتدل الجو

والبحر إلى جانبك يعدُّ خطواتك.

• السعادة أن تنظرَ إلى أشعة الشمس تخترقُ اللون الأخضر في شجرة كثيفة الأوراق.

• السعادة أن تُمسك بنملة كانت على وَشْك السقوط.

• السعادة أن يبادِلَكَ من تُحبّ نفس الشعور، ونفس النّظرات، ونفس الكلمات الخفيّة.

• السعادة أن تقصَّ شريط محلِّك الخاص الذي طالما تمنَّيت أن تمتلكه.

• السعادة هي كلمة الرضا من والديك.

• السعادة أن تنبتَ الوردة التي زَرَعْتها بِيديْك.

• السعادة أن تنظر للأشياء من حولك بدون عصا، أو نظّارة.

• السعادة أن تلحظَ نجمًا هاويًا أنت وصديقك في اللحظة نفسها.

الضَّعف في إحدى صوره

في الصباح عند طلوع الشمس، تجلس أمام النافذة، تمسك بيديها كوبًا كبيرًا من القهوة الباردة وتنظر .. تتأمَّل الشيء واللّا شيء. تسلَّلتْ أشعة البكور إلى عينيها وشعرها، فتركتها تعبث بلونهما. لم ترمش للحظات طويلة. لاصق طرف كأس القهوة شفتها، ولم ترشفْ منه شيئًا.. استنشقتْ رائحته ببطء شديد، وأطلقت زفيرًا أبطأ. اعتادت على هذا المنوال منذ أسبوع تقريبًا، مجالسة الصباح برفقة القهوة. "سارة" بعينيها العسليتين، وشعرها البندقي تقدّس الصباح، ومراسيم الصباح. تنسى عالم المادية للحظة، إلا من قهوتها التي تسكب في جوفها روح القوة. تسرح بمخيِّلتها إلى العالم الضائع، تجوب كلَّ عوالم الخيال، تدقُّ أبواب أسرار الكون، حتى إذا تعبت أخذت رشفة من قهوتها. عيناها تغرقان بالدموع، فتتذكر أن عليها أن ترمشهما. "ليتني صُبحًا" قالتها في نفسها. "ليتني أشعة الشمس" أضافتها لفكرتها السابقة. أغلقت عينيها لبرهة، وساد الظلام. سقط الكأس من يديها، فسارة من دون الشمس والقهوة ليست إلا نكرة.

صديقتي

عند التقاء المحيطين الأسودين، البحر والليل، تتراقص ألعاب النار الملونة.. تُسمع دَوِي فرقعتها من بعد كيلومترات. تُزيّن الليل لثوانٍ، ثم تختفي، وترى انعكاسها على الماء يلاعب أمواجه الهادئة. هناك جلسنا بصمت نرقب المشهد الساحر، وتخفق قلوبنا بشِدّة عند انفجار ألعاب النار. نضحك بلا صوت لردّة الفعل اللا إرادية من الصوت العالي، ونُكمل الضحكة بابتسامة تسمَّرت طويلًا ، ثم لا تلبث، وتتلاشى. تغرق عينا صديقتي بالدموع، ثم تنسكب أنهارًا. سمعتُ صوت حشرجة صدرها في محاولة لمنع البكاء، فالتفتُّ إليها:

- ما بكِ؟
- لا شيء..
- أعني لمَ تبكين؟
- من فرط السعادة..
- من السعادة..!
- هممم

أبتسم، وأنظر إليها طويلًا ، تنعقد الكلمات في لساني، وأسأل نفسي "فيم تفكر؟!". أنظر إليها من جديد. تلتمع عيناها بألوان النار، وحركات المَوْج اللطيف. تنظر للأفق اللّا متناهي.. كم هي جميلة صديقتي! التفتُّ إلى ما يأخذ نظرها بعيدًا.. ثم غرق قلبي بالامتنان.

سطور عابرة

"كفاك مكابرةً، وعنادًا ... أما آن لك أن تضُمَّني؟!"

***

"السماء ما هي إلا بحر الملائكة السابحة في الكون. أصدافها نجومها، وأمواجها.. شهبها، ولآلئها أقمارها".

***

"فكأنما عُصرت الغيوم عصرة نفِدت منها المياه المختبئة بين خلاياها حتى ما بقيَ منها قطرة. ثم بقيتْ سحبٌ بيضاءُ شاحبة ضئيلة تُعلن عن تلاشيها فيما وراء الأفق.".

***

"جزء من الستارة ينكشف عن ضوء ساطع، فلا أدري هل هو إنارة الشارع، أم قمر طالع، أم نجم لامع!".

***

"عندما يمتزج صوت البحر، وترانيم النوارس.. أحلِّق برأسي فوق السحب، وأضرب ألحان ذكرى صديق غائب".

***

وأشعر أنني زهرة اقتطفت من الوطن إلى الغربة..
يا ويح الجمال كيف يكون سببًا في العزلة؟!
أفي الجمال عيب، أم هي الفطرة؟!

***

الفن تجسيد لمشاعرنا، فأنت عندما تكون حزينًا، وتموّج الفرشاة في يدك، تظهر في اللوحة صورة الحزن الذي بداخلك وهذا الحزن يختلف عن حزن شخص آخر، وهكذا كل المشاعر. أرأيت الآن لِمَ الفنّ عظيم؟ لأنك تحيي ما لا يستطيع أحد رؤيته!

***

نتقابل بعد فراق طويل.. تختلف المشاعر حينها.. هل هي سعادة؟ حزن؟ أم عتاب؟ أنتظر بعض الكلمات منه، ولكن دون جدوى. ثم يولي كلّ منا ظهره، ويرحل بصمت. ليتني أستطيع أن أرى التقاسيم التي ترتسم على وجهه حينها.

***

صوت تساقط البرَد على وجه البحيرة، الطبيعة تحتفل فرحًا لتوازنها، وصحتها.. لا شيءَ ينقصها الآن، فالألوان تناسب مزاجها الجيد، ثم ترى أثره واضحًا على الكائنات الحية الأخرى المفكّرة والمُسَيّرة. تهمس الطبيعة من خلال رياحها وتنفس أنهارها، وطرب

طيورها، وأشجارها، وآه ما أجمل الإنسان وهو يجري في حقولها طربًا ومُغنّيًا أنغام البهجة! ضحك له العشب وهو يجري فوقها قائلة: "أنت تستحق هذا الجمال!" وبعد أن سمعها الإنسان رفرف قلبه، فتقلّب فوقها منحدرًا على بطنه وظهره لا يبالي بما يركب عليه من بقايا الثلج المبلّل. وبعد أن أصابه التعب قليلًا بقيَ مستلقيًا على ظهره يحدِّق في الغيوم الباردة، فعانقها، وعانقته، ثم شكرها جدًا، وانطلق إلى عالم الإنسان من جديد.

***

الانتظار يستنزف الروح والطاقة بقدر ما يستنزف ظمأ العطشان، وشوق الولهان.

***

مبتسم دائمًا، وفي قلبه ألف طعنة!

***

وقد أصل أحيانًا من الإنهاك لدرجة أنني أفقد روعتي في الاندهاش.. كأن أرى نجمًا هاويًا ولا أبتسم!

نجمٌ وقمر

نجمٌ وُلد للتوِّ، وقمرٌ شاخَ مع الزمان..
دارتْ بينهما المداراتُ حتى أصبحا قريبين..
باركَ القمر ولادة النجم وتمنّى له حياة مشعّة..
اقتربَ النجم من القمر أكثر حتى بانتْ تجاعيده التي أخفاها نوره الساطع..
تألَّق النجم مع الزمان، وازداد بريقه،
وكان يومًا بعد يوم ينهبُ علمًا من حكمة القمر..
كان يعلمهُ دروسًا في الحياة، والكفاح، والصبر،
ومن جُملة ما علّمه القمر أنّ شعاع النجم سيبقى ساطعًا حتى بعد وفاته..
كَبُر النجم وخاض معارك عديدة ضد شياطين السماء،
وعندما آنَ موعد ضموره ودَّعه القمر بابتسامة رضا،
وذكّره أن بريقهُ سيبقى ناصعًا لعدّة أجيال.

الشخص النقي

هناك شخصٌ يجمعُ العيون،
وهناك شخصٌ يجمعُ الآذان،
وهناك شخصٌ يجمعُ الأنوف،
وهناك شخصٌ يجمعُ الألسُن،
وهناك شخصٌ يمشي في حال سبيله..
لا يدري أن القلوب اجتمعتْ عليه.

مسرحية فراق

كانت تجلسُ قرب النافذة المفتوحة،
وبيَدِها كوب شاي نقي،
هبّت نسمةُ هواءٍ باردة،
سقطتْ معها أوراقُ الشجر، وتناثرتْ
كأنَّها مسرحيةُ فراق..
استقرَّت إحدى الوُرَيْقات في كوبها،
كقارب ضائع وسْط البحر
بدأتْ تغرقُ شَيئًا، فشيئًا
كانت عيناها تُحاولُ إنقاذَها
ولكنَّها غرِقتْ مع الورقة.

رحلة عبر الخيال

لون البحيرة يشتعل حُمرة يكاد يُعمي العينين، خِلْتُها أعشابًا بحرية من بديع ألوان أزهار البحر، ولكن عندما اقتربت أكثر وفتحتُ عينيّ أكثر، وجدت الشمس تُغطي الأفق بلونها البرتقالي المُشِعّ حتى انعكس لونها في تلك البحيرة الصافية. وعندما اقتربتُ أكثر.. وجدتُ قاربًا خشبيًّا يُجدّف نفسه ويقترب منّي.. كانت حركاته هادئة، وبطيئة كأن الرياح وسحر المياه يحرِّكانه، ولكن من كان يحرِّك المجاديف؟ انتظرتُ وصوله بصبر، وعندما حطّت قدماي كأميرة نزلتْ من عربة، اتّسع القارب، وأصبح ضعفَ حجمه فسعِدتُّ، وانطلق بي في رحلة هادئة، صاخبة بأصوات الإوَزّ المحلّقة فوقي والغدير الذي يرافقني، وغناء السمك الذهبي المتراقص حولي، ونشيد الشجر والأعشاب خلفي.. ثم.. استطعت أن أسمع صوت شَعري، وهو يرفرف ورائي، ثم يضرب أذني.. كم هو صوتٌ عذب لم أكن أسمعه من قبل! البحيرة الحمراء أصبحت زرقاء داكنة جدًا لا يمكنني أن أرى ما كان أسفلي وحولي.. ولكنني أرى ما هو أجمل.. قوس من نجوم يحرسني في الأعلى تخيَّلته طَوْقًا أُزيّن به رأسي.. ولكنه كان أكبر من أن يكون طوقًا.. كان جسرًا من نجوم بعدد حبَّاتِ الرمل البيضاء، وتلتفّ حولها هالةٌ بنفسجية داكنة. لم ترمش عيني للحظات طويلة. أخذ أنفاسي مشهد السماء اللّامعة.. ثم قلتُ في نفسي: "أتمنّى لو أستطيع أن أبحر في غمامة بين السماء والأرض"، فارتفع القارب بي، وإذا به يتحوَّل

إلى منطاد تعلوه بالونة بيضاء، وصوت الرياح وهي تأخذنا إلى أعلى كصوتِ قطيع انطلق هربًا من وحش مفترس.. لكنني لم أَخَفْ.. لم أَخَفْ من الصوت، وبقيت أنظر إلى القوس العملاق يقترب مني.. ثم وبعد أن طال بي المكوث في المنطاد، وابتعدنا كثيرًا عن البحيرة الداكنة.. رأيت قارّةً بيضاء تمتدّ حتى المحيط، وأشجار صنوبر متلفِّعة بالثلج وجبال بيضاء، وتلال، وهضاب، ومنخفضات بيضاء، فنظرتُ للأعلى ثانية، فكانت شيئًا يصعب وصفه بالحروف.. ولكنني سأحاول. أشرطة متراقصة من ألوان الطَّيْف تلفّ السماء، وتهتزّ كأنها ترددُّات موسيقى ناي. غمرتني تلك الأضواء حتى أعمت عيني فاستيقظتُ، وأنا أحمي عيني من وهج الشمس!

انفلتت ساقاه مع الريح

أخذ يجري بسرعة من دون مقدّمات. كانت ساقاه كمَنْ فلتت من زنبرك، تتسابق كل ساقٍ مع الأخرى، وصاحبهما قد شقّ على وجهه ملامح لا تحلل، ولا تُفسر. فمٌ قد خطّه سطران من الأسنان المتراصّة، وعيناه لا تتلفَّتان لا إلى هنا، أو هناك. تنظران أمامهما مباشرة، فقط أمامهما. والريح تصفع وجهه كلما زادت سرعته. لم يكن لديه ذلك الشعر الغزير ليُحلّق خلفه، فقط وجنتاه وخدّاه الممتلئتان كانا في حديقة مَلاه تعصف بهم ألعاب الخطر.

قطع بجرْيِهِ شوارعَ، ورمالًا، وأزِقّة ومحلات، وممرّات ضيقة لا نهاية لها. كان يشعر بأن الأرض تنطوي من ورائه، فلا حاجة لتخفيف سرعته، أو النظر إلى الوراء. قلبه من داخل صدره يكاد يسقط على معدته، وأنفاسه تخرج من أنفه كَثَوْرٍ جامح، وبدأ العرق ينحدر من جانِبَيْ جبينه. كل من رآه ظنه هاربًا من مركز شرطة، أو سارقًا من خزنة، أو مفجوعًا في لهفة.

لكنهم لم يعلموا أن ساقيه عادتا للحياة من جديد في ذلك اليوم!

الأمل

تراءى لونُهُ الأبيضُ من بعيد..
كصفيحة معدنية لامعة،
تقتربُ شيئًا فشيئًا،
بريقهُ يكاد يُعشي عينيّ..
رفعتُ كفّي لأحجبَ شعاعَهُ السّاطع،
أرحتُ عيني لدقائق.. وعندما أزلتها،
كان الضوء قد اختفى.

روحُ الطبيعة

بعيدًا عن صخب المدينة، يجلس الشيخ كعادته في قلب الطبيعة. فمنذ طلوع الفجر، يولي صندوقه الإسمنتي المليء بالنوافذ والأثاث القديم ظهره، ويتّجه إلى حيث يبدأ قلبه بالنبض. هناك بعيدًا. حيث يتوقف الزمن في عقله.. يبدأ الشيخ "عدنان" في مخاطبة مخلوقات الله (الطبيعة).. لا بلسانه، بل بعقله الطفولي. منذ سنِّ الثالثة احتجز ذلك الكرسي الخشبي لنفسه حيث تنطلق نفسه راكضة مرفرفة في الحقل بين الأشجار والزهر، وترى جسده ساكنًا هادئًا، كأنما فارقت روحه الحياة. وتراه يتساءل: ماذا لو كانت الطبيعة تتحدث؟ بماذا سوف يكون حديثها؟ هل يا ترى يكون كأحاديث البشر؟ عن الحب؟ العمل؟ المأكل؟ السكن؟ الأطفال؟

كل يوم يذهب إلى المكان نفسه، ويشعر بأن العُشب والشجر والسماء أصبحوا أصدقاءه وكبروا معه، حتى الكرسي هَرِم وتغيّر لونه. الكرسي الخشبي بمثابة الأب الحنون بالنسبة لعدنان، أما الحشائش الراقصة فهي أطفاله، تتجمع حوله وتتبادل الحديث والضحك معه.. علاقة حميمة كالأسرة نسجها في عقله؛ لأنه حُرِمَ منها في عالم البشر.

عندما تعلن الشمس الرحيل، يقوم معها متوجّهًا إلى صندوقه المظلم؛ لأنه يعلم أن على الأطفال النوم مبكرًا حتى يستيقظوا مبكرًا للقاءِ يومٍ جديد.

صنف من الناس

يُنصتون بشغف، يتابعونك بنظرات دافئة، يتحدّثون بعُمق، يعطون بلا تردّد، يَنفِرون من الخصام وتوافه الحديث، يتمسّكون بمن يحبّون، يقابلون الإساءة بضحكة، يتعاملون مع الجمادات بحنان، ومع الحيوانات بحميمية، يتحسّسون الأشياء التي يحبونها وكأنهم يمسكون بفرخ ولد للتّو.. بكلتا كفّيه وقلبه أسير هذا الكائن الضعيف.

يحبون السفر من أجل التأمّل والسير في ملكوت الخالق، وعقولهم تحلّق سارحة في جمال ألوان الأشجار والأزهار، وارتفاع الجبال، وبرودة نهر متدفّق وتشكيلة ثلج يترنّح في الجو، والتفاتة عصفور فوق غصن وهبوب نسيم بين خصلات شعر حصان برّي، وسماء ليلية ترقص فيها النجوم، وألوان فسفورية تسبح فوق الجليد.

أحب الذين يتعاملون مع القلق كأنه رشحة برد تنقضي بدواء ذكر الإله. أحب النقاشات البعيدة عن أحوال الناس، والأقارب بعيدة جدًا تكاد تعانق السماء والفضاء، وروايات الخيال والبحث عن أسباب شمس منتصف الليل والحشرات المضيئة، والكهوف المتلألئة، وأماكن ظهور القمر العملاق، ورصد مواعيد تساقط الشهب، يقضون أوقات فراغهم بتعلم حرفة جديدة وقراءة الأدب والعلوم وتطوير ذواتهم. لا يجدون وقتًا للجلوس في المقاهي للتصوير، أو قتل الوقت.

يمدحون كل ما يعجبهم ويَرَوْنَ مواطنَ الجمال فقط فيما لا يعجبهم. إيجابيتهم تفوز دائمًا، يرون أنه مهما بلغ سوء الإنسان لكن تبقى فيه بذرة الخير التي ستنتشي كزهرة يومًا ما. يحبون الصباح والجري مع إطلالة الفجر. يبتسمون دائمًا رغم الهموم المتراكمة والأوجاع، أرواحهم تتحدّث قبل ألسنتهم.

يعجبني هذا الصنف من الناس وأتمنى أن ألتقي بهم في كلّ بقاع الأرض!

القراءة والطبيعة

تردّدتُّ كثيرًا قبل كتابة هذه الأسطر؛ لأنني أعلم يقينًا بأن أغلب القُرّاء سيهاجمني في هذه النظرة. فيا تُرى ما الذي يخطر في بالنا عندما نجمع بين كلمتي القراءة والطبيعة؟

لا شكَّ في أن معظمكم سيجول في خياله ذلك المشهد الساحر من طبيعة خلابة، وأرجوحة تتدلّى من على جذع شجرة عملاقة غطت أغصانها بقعة من السماء، وترامت أشعة الشمس الراقصة من بين ثنايا أوراقها، وعلى تلك الأرجوحة تجلس فتاة ترتدي ثوبًا أبيضَ فضفاض الأطراف، وتمسك بيديها كتابًا، وعيناها غائصتان في طياته.

أو أنه يتراءى لك مشهد حديقة عامة يمرح فيها الأطفال وتتراشق كرة هنا وهناك، وربّما كلب يقوده صاحبه يمرُّ على ناظريك، ثم يسقط نظرك على رجل كبير في السّن يخفي رأسه خلف كومة من أوراق عملاقة. هنا أتساءل هل الأشخاص فعلًا يقرؤون؟

إن فكرة الطبيعة، والقراءة لم تصطلحا لَدَيّ بعد، فأتساءل دومًا: كيف يمكن لشخص أن يسبح في رحاب هذه الطبيعة الجميلة، ويلقي ببصره في كتاب من حروف؟! في هذا المقام فقط يمكنني أن أصرخ عاليًا: "متّع ناظريك قليلًا!"

في الوقت الذي تقضيه عيناك غارقتين في الكتاب.. أنت بذلك تفوّت عليك فرصة مشاهدة فراشة شفافة، أو طائر بلون ذهبي،

أو جذع بتفاصيل صديقك، أو عشب مغطى بقطرات الندى، أو زهر يتنفس، أو قط سارح، أو سحاب بشكل باسم، أو شهاب خاطف، أو صخرة بلّورية، أو نملة تائهة أو... أو..

لقد حاولت مرة تقليد طقوس هؤلاء الناس من "قرُّاء الطبيعة" حيث أخذت معي رواية "كراكاتو" وتخيّرت لي مقعدًا خشبيًا في السكن الداخلي للجامعة، وكان الوقت عصرًا.. جلستُ على المقعد واضعةً قدمًا على قدم، وهاتفي المحمول بجانبي.. ثم قرأت سطرًا.. أعدتُّ قراءة السطر من جديد، لكن عقلي أبى إلا أن ينظر إلى طائر المينا المشاغب، وتضارب سعف النخيل بخفةٍ من حولي.. قفز طائران على بُعْدِ أمتار منّي.. فأغلقتُ الكتاب من فوري، وسرحت بخيالي بعيدًا مع أنغام النسيم الذي كان يحتضنني.. أدركت منذ ذاك الحين أن القراءة خارجًا طقس غير ملائم لطقوس القراءة.

من هنا بدأت أفكّر كم عدد الكُتّاب الذين اتخذوا الطبيعة إلهامًا لهم؟ وكم عدد الكُتّاب الذين عصرت الجدران الأربعة أقلامهم؟ ماذا عن كتب الحرب والمعاناة؟ ماذا عن كتب السُّجون؟ ماذا عن كُتّاب المصباح وسط غرفة مظلمة؟

لذلك فأنا أشجع القراءة في الأجواء المتناقضة مع الكتاب، فإذا كنت في جوٍّ كئيب كغرفة وسط جدران بالية، وسقف متقشر وأثاث قديم، وجوٍّ رتيب، فأمسك ذلك الكتاب الذي يأخذك إلى عالم من خيال فسيح، وبديع، وملوّن حيث بلاد أخرى وُجدت أم لم توجد على أرض الواقع، حينها سترى عقلك قد تأقلم على الجو الجديد الذي خلقته له، وقلبك بدأ يرفرف من السعادة الغامرة، وعيناك لا

ترى إلا ما سطّره القلم أمامك. وإذا كنت في جو متنقّل كحافلة عامة، أو سيارة فخذ لك كتابًا يتحدث عن أنماط البشر، أو في تطوير الذات، أو علم النفس.. ستجد نفسك تلتفت بين الحين، والآخر بين الكتاب والناس من حولك محاولًا فهم سلوكياتهم، وطباعهم المختلفة. وإن كنت قد اتخذت أعلى الشرفة مخدعًا، ومن ضوء القمر مصباحًا، ومن الستائر الشفافة مدلًا، فتناول قصة، أو رواية قبل النوم.. وإن كنت وسط الطبيعة قد سافرت إلى أجمل بقعة من الأرض تفترش الزهور، وتلتحف بالسماء، وتعانق الأشجار، وتصغي لغناء العصافير، فليس هناك كتاب أنصح به، ولكن ورقة وقلم قد تسطّر به خواطر من ذهب، أو ترسم به ما تحرّضك يداك على رسمه!

أمارس حقي

لستُ أدري متى بدأت ألحظ هذا، ولكنني على أية حال سأكتبه لتقرأه بتمعُّن!

إنني الآن مستلقية على سريري بجانب النافذة، تشير الساعة إلى التاسعة إلا عشر دقائق. خطّ قلمي منذ قليل معلنًا نهاية اليوم السادس عشر من ديسمبر، ولا داعي لذكر العام؛ لأنَّ كل ما يهمّ الآن هو أننا في بداية فصل الشتاء. يروق لي في هذا الوقت من اليوم قراءة كتاب، وغالبًا ما تكون رواية.. إنها هنا تستلقي بالقرب مني لكن دعنا من هذا كله.. عندما التفتُ إلى يميني حيث النافذة نصف المفتوحة تغطيها أربع ستائر بيضاء، فإنه بإمكاني ملاحظتها، وهي تتراقص بفعل النسيم البارد المتسلل من الجزء المفتوح. من المفترض أن يتحرك الجزء القريب من الهواء المتدفق، إلا أنها تتمايل أربعتها.. وهذا ما يجعلي أشعر أنها تتنفس معي في حجرتي. تتمايل للأمام والخلف، ولا يمكنني سماع أي حسٍّ لها. أحيانًا أقول لنفسي إنها سعيدة.. لسبب ما أشعر أنها تتحدث للوردة التي وضعتها بالقرب من سريري منذ يومين. لقد بدأت أشعر بالملل، فلولا الأصوات القادمة من الخارج لاستسلمت للنوم. ماذا تظن أنني أريد أن أخبرك بهذه الكلمات؟ إنني فقط أمارس حقي من الكتابة؛ لأنني قرأت اليوم أن الكتابة بالقلم لها تأثير سحري خاص تجعل العبارات تسيل من معجم رأسك بانسيابية وهذا ما أشعر به الآن.. أشعر بالامتنان لما قرأت، فلولاه لما كتبت هذه الكلمات.

"اكتب.. ولو سطرًا"

من مِنّا لا يحب أن يكون له إنجاز يُذكر، وبصمة لا تُمحى في صحيفة حياته، ومذكراته الخالدة؟! بالطبع كلنا نريد أن نُخلِّد أسماءنا.. حتى وإن لم يكن الهدف هو الشهرة، وإنما مجرّد شعور منعش يبعث على الثقة، وتقدير الذات.

قبل تخرُّجي من الجامعة بأشهر قليلة راودتني فكرة سرعان ما تحوّلت إلى طموح وهي أن "أنشر كتابًا"! كتابًا يحمل اسمي وفيه يضم الأفكار والخواطر التي تعبّر عما بداخلي. كثير منا لديه خواطر نادرة، وأفكار يحب أن يشاركها غيره؛ ليُري المجتمع نظرة مختلفة لما حوله عمّا هو سائد. وعلى أية حال، فمنذ اللحظة التي أخذت على نفسي هذا القرار خصصت لي دفترًا للكتابة. لطالما كنتُ مهووسة بالقراءة، وخصوصًا كتب الأدب، والقصص، والخواطر، والمقالات التي تتزين بعبارات بديعة ملوّنة تصف الكون والطبيعة بعيدًا عن مآسي وسلبيات الحروب، والفقر، وكل ما يكدّر الخاطر.

ولأحقِّق هدفي الكبير، وهو نشر كتاب، أخذت على نفسي عهدًا أن أكتب كل يوم.. ولو سطرًا واحدًا. وعادة ما يكون هذا السطر في مدوّناتي على هاتفي المحمول، أو على صفحتي في تطبيقات مواقع التواصل الاجتماعي، أو حتى في دفتر خواطري، وفي حال لم أشعر بطاقة الإلهام فإنني أكتب عن أية حركة تدور حولي قبل النوم كحركة الستائر بفعل الهواء القادم من النافذة المفتوحة! إنَّ

هذه العادة كفيلة بأن تنمّي لديك مهارات الكتابة والصياغة وتحفز الإبداع، ثم لاحقًا سترى أن قدراتك الكتابية بدأت تتحسن، وتتطبّع بطابع الكُتّاب المتمرسين والمحترفين. قارن بين أول جملة كتبتها، وبين ما كتبته اليوم، بالطبع سيعجبك ما صار إليه مستواك.

إن الأديب "نجيب محفوظ" لم ينل شرف أول كاتب عربي يفوز بجائزة نوبل للآداب من فراغ، فقد كان يحرص يوميًا بعد عمله على الانزواء والكتابة. وها هو العالم يخلد أعماله واجتهاده بأكثر من ثلاثين رواية، وما يقارب العشرين مجموعة قصصية.

والآن، إن كانت لديك هواية تريد أن تحوِّلها لإنجاز سعيد كقراءة مئة كتاب في سنة، أو الحصول على وزنٍ مثاليٍّ، أو التغلب على أحد مخاوفك، خصّص لك وقتًا كل يوم لتمارس فيه طموحك، وتذكّرْ مقولة: "قليلٌ دائم خيرٌ من كثيرٍ منقطع" و"أحب الأعمالِ إلى الله أدومُها وإن قلّ".

صباح جميل

أن تفتح نوافذ الغرفة، وتُحكِم رباط الستائر، أن تقف أمام أشعة الشمس الساطعة في أول ساعة الصبح، ألَّا يعكّر مزاجُك أية طاقة سلبية، وتبدأ يومك بإفطار صحِّي، وكوب من العصير الطازج الذي تحبه، ثم تجلس بهدوء لتمارس هوايتك المفضلة.

هذا ما أسميه "صباحًا جميلًا!"

ضحكتك

ضحكتك حقل ورد يغرِّد فوقه طير
ضحكتك ابتسامة الشَّمس بعد الفجر
ضحكتك موجة وديعة على شطِّ البحر
ضحكتك نجمة صَوْب ضيِّ القمر
ضحكتك رقصة نحلة فوق الزَّهر
ضحكتك ألوانُ الطّيف بعد المطر!

مضى عام

مضى عام على ذلك الحلم الثقيل، ليس حلمَ ما يراه النائم، بل ما ترنو إليه النفس. وليس ثقيلًا وطأته تُرهِق الكاهل، وإنما كان ضخمًا بكلّ معانيه حتى أن أصغر خلايا جسدي كانت قد تشرّبتْ به.. وبِتّ أنتظره في نهاية العام. فكما يُقال في ديسمبر تنتهي كلّ الأحلام إما بتحققها، وإما بانتظارٍ سيدوم أطول. ويبدو أن أحلامي اختارت ألَّا نلتقي ذلك العام؛ لذلك بدأت صفحة جديدة، وخطّطت الأحلام نفسها لهذا العام، وأسميته عام "المعجزات"؛ لأنه إن لم يفِ "الأمل" بوعده، فالمعجزة كلمة أقوى، ولا شكّ أن رب هذه الكلمة هو أقوى وأكبر.

"وسَيبْقى ما في القلبِ في القلب.. هكذا يجبُ أن يكون.. ربَّما!"